الخريف واغتيال أحلام

إبراهيم الفقيه

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(3807 /٣/ ٢٠١٩)

٨١٣.٠٣

الفقيه، ابراهيم ذيب

الخريف واغتيال أحلام / ابراهيم ذيب الفقيه ._ط٢ ._ عمان دارالايام للنشر والتوزيع.

الطبعة الثانية 2020

دار الأيام للنشر والتوزيع

عمان – ش. الملك حسين – وسط البلد أول طلعة

جبل الحسين- بجانب سرفيس جبل الحسين خط 9

ص. ب 925636 – العبدلي 11190 الأردن

هاتف : 4633362 - 6 - 00962 فاكس: 4633352 - 6 - 00962

جوال : 707630- 795 -00962 - 509925-797- 00962

E-mail: salah_tellawi@yahoo.com

alayamdar@gmail.com

الخريف واغتيال أحلام

إبراهيم الفقيه

دار الأيام للنشر والتوزيع

إهـداء

إلى التي عاشت في الظل وهي تتمنّى وتحلم..
ثم غيّبها القدر غريبة.
أهدي هذه الرواية

شـريف

١

"أنا صامد.. أنا صامد
وإن هدموا بيتي أنا صامد"..

- أغلِق المذياع "صرخ أحد الرفاق"، فقد هدموه الكلاب، ولم يبق منه سوى جدار.

تململ آخر وتأفّف: "لعنهم الله، أليس من ظلٍ نطلق عليه النار!". صوّب نحو المذياع، وأضاف: "لم يبق أمامنا غيره، سنرى مدى صموده!". وأطلق زخّة من الرصاص..

تطاير المذياع شظايا، وصمت دفعة واحدة.
تابعتُ الأهزوجة أدندن غير مبالٍ بما حدث..
"وإن قتلوا ولدي أنا صامد..
وإن حرقوا جسدي أنا صامد"..

كنا ثلاثة فوق سطح الطابق الثالث من إحدى البنايات القريبة من مخيم صبرا وشاتيلا في ضواحي بيروت، لا يعرف أحدنا الآخر.. لكنا كنا متفقين على شلّ حركة كل من يعبر تقاطع الشوارع المؤدية إلى المخيم، حيث أقيم حاجز ليلي يحرسه مقاتلان.. وقد أُمرنا بحراسة حارسيّ الحاجز والدفاع عن حدود المخيم.

الجو بارد والمطر يتساقط بهدوء، وكل واحد منا يتدثر ببطانية سوداء.. نظر أحد الرفاق إلى ساعة يده.. تبيّن الوقت بصعوبة، العتمة كانت تغرق في أشد مراحل الليل حلكة.. غمغم:

- الثانية والنصف.. تصوّروا حظنا السيّء.. ثلاث ساعات مرت ولم تمر سيارة واحدة أو شخص واحد.. غداً سأطلب نقلي إلى تقاطع المخيم الشرقي. ثم رفع قامته قليلاً ونظر إلى الشارع ليتمكن من تغطيته عبر نظرة خاطفة..

استفزني بكلامه وبحركته.. قلت: "ألهذه الدرجة ترغب في القتل!؟".

ضحك بصوت مرتفع وقال: "ألم تقتل أحداً بعد!؟".

أجبته بنفور بأني لا أنوي القتل أيضاً.

صرخ فجأة: "إذا لماذا أنت معنا؟!"

دارت الدنيا في عينيّ.. فجأة شعرتُ بصداع ينخر رأسي.. هبّت نسمة هواء باردة، وتناثرت حبات من المطر على وجهي.. قلت: "أنا هنا لأدافع عن حدود المخيم وأحمي حراس الحاجز عند التقاطع فقط".

قطع رفيقنا الثالث حبل أفكاري وهو يمضغ قطعة من العلكة بطريقة مستفزة وقال:

- لا بأس، ستتعوّد بعد أن تقتل أول شخص. وانزوى قرب الجدار.. نشر البطانية فوق رأسه وأشعل سيجارة تحتها..

زحف الآخر وأشعل سيجارة أيضاً.. ومن خلال عود الثقاب استطاع أن يرى عند قدميه صحيفة نشرت على صفحتها خمس صور لجثث شبان قتلوا في أحياء متفرقة على الهوية.. قال:

- أشعر اليوم أني أكثر إصراراً على القتل..

وفي تحفّز وترقّب رفع رأسه ونظر من خلال منظار بندقيته المكبّر.. لم ير أحداً.. فأضاف:

- سيأتون حتماً، وسأتصيدهم كالأرانب.. في داخلي عشرات الضحايا يدفعوني للانتقام وإطلاق النار.. سأقتل كل من تُسوِّل له نفسه الاقتراب من حدود المخيم.

تركتهما يثرثران، وقمت أتحدى زخات المطر وطلقات الرصاص الطائشة.. أتمشى وأرقب التقاطع..

تنحنح أحدهما.. أحسستُ أنه غاضب من تصرّفي.. تأفف وقال:

- لماذا لا تجلس مثلنا!.. إنك تثيرني بخطواتك وأنت تروح وتجيء.. ماذا يقلقك!

تباطأتُ في الإجابة.. استعجلني وطلب مني الجلوس ثانية.. قلت:

- أفكّر في نهاية المطاف، عندما تفتح الجامعة أبوابها.. قاطعني وقال:

- أطمئن، القتال سيستمر، وستعجز الحكومة عن تأمين الحماية للطـلاب، وبالتـالي سـتعجز الجامعـة عـن تحديـد موعـد الامتحانـات النهائيـة.. هنـاك امتحـان أهـم يجـب أن تجتـازه، ومن دونه تبقى جميع الأمور ثانوية وتافهة.

كلماته كانت مُدمّرة.. أشبه بِرُجم من الحجارة تساقط فجأة على رأسي.. زخات من الرصاص القاتل.. أضاف:

- المهم أن تحـافظ علـى حياتـك حتـى يـوم الامتحانـات. ووقـف فجأة ينظر إلى الشارع وأضـاف: هذا التقـاطع سيكون مقبـرة لأعداء الثورة.

أخذ المطر يتساقط أشد وأعنف من قبل، وأصوات المدفعيـة تُدوّي من بعيد في الضاحية الشرقية.. نشرتُ البطانية على كتفـي وجلست فـي زاويـة قرب الجدار متناسياً أحداث النهار، ورحت أدندن:

"بلاد العرب أوطاني.. من الشام لبغدانِ
ومن نجدٍ إلى يمنٍ.. إلى مصر فتطوانِ"

همس أحد الرفاق بسخرية: "هل ترسّخ فـي اعتقادك أن الكلمـة صارت مدفعاً يحميك من الموت!".

أضـاف الآخـر باسـتهزاء أيضـاً: "وصـار الهتـاف حِمَمـاً، مثـل انطلاق الصـواريخ وهدير الطـائرات!"، ثم وقـف وسـحب نفسـاً عميقاً من سيجارته، وتباطأ وهو ينظر إلى جهـة البحـر الغربيـة.. فصاح به رفيقه: "أطفئ السيجارة يا..."

وقبل أن يتم جملته انطلقت زخة من الرصاص من الجهة الشرقية المقابلة لنا.. وفي أقل من لحظة ارتطم بالجدار الخلفي وهو يصرخ والرصاص ينهال على المكان بغزارة كحبات البَرَد، ويرسم خطوطاً ملونة في الظلام كالشهب المتساقطة من السماء..

اندفعتُ نحوه، كان يرتعش ويتأوه، تحسّستُ إصابته.. لم ينطق بحرف.. كان الدم الحار يتدفق من رأسه ويمتزج بماء المطر البارد.. لففته ببطانيتي.. تكوّر كطفل فاجأته موجه برد وهو نائم، أخذ يرتعش، التصقتُ بجانبه في محاولة لدفع الموت عنه بحرارة جسدي.. شعرتُ أن حركته أخذت تهدأ.. علّق الآخر:

- أعرف أن إصابته قاتلة، هذا ليس الأول، ولن يكون الأخير.. الكلاب، ماذا يريدون منا!، إنهم يتصيدوننا كالأرانب، وكل اعتقادي أننا سنتصيدهم كالكلاب الضالة..

ثم مدّ بصره فوق الشارع العريض لالتقاط صورة لرجلين وقفا عند الحاجز، بينما وقف أحد الحارسين يدقق بأوراقهما الثبوتية على ضوء مصباح صغير.. صوّب بندقيته نحوهما وهو يهمر بنزق:

- سأنخرهما كالمنخل إذا تحرّكا.. سأنتقم منهما.

كان الجريح قد فقد حركته واستسلم لقدره تماماً.. كنت أرغب في الهروب والابتعاد عن هذا المكان اللعين، ورفيق الليل يهمر ويلعن.. حاولتُ تهدئته، ذكّرته بأننا في مهمة محدودة: "مهمتنا أن

نشلّ الحركة لا أن نقتل الناس الآمنين اعتباطاً".. همس وكأنه يحدث نفسه:

- ما الذي أتى بهما في هذه الساعة المتأخرة من الليل!؟ .. هذا الطريق ممنوع..
- أعرف أنه ممنوع على المسلحين وعلى السيارات العسكرية، لكن ليس المنع قائماً على المشاة المدنيين.

أحسستُ بصوتي يرتفع تدريجياً مؤكداً على تنفيذ المهمة الصعبة التي جئنا من أجلها، محاولاً إقناعه بعدم إطلاق النار على الشابين.

تراءى لي أنه يرسم ابتسامة صفراء بين شفتيه، وشاهدته يدير مقدمة بندقيته نحو نافذة أضيئت فجأة في بناية مقابلة، ظهر منها رأس امرأة عجوز، ومن خلفها ظهر مسلح بصعوبة استطعنا رؤيته قبل أن يطفئ النور، شدّ على زناد بندقيته، لكن الرصاص لم ينطلق، فأخذ يكفر ويلعن وهو يملأ بيت النار من جديد بعد أن أفرغه مما فيه.

اختفى الشابان في الظلام.. وفي نفس الوقت ظهرت سيارة بأضواء خافتة تقترب من الحاجز، أبطأت من سرعتها وأضاءت الأنوار العالية.. ظهر الحارسان بوضوح أمامها، أطلق الحارس زخة من الرصاص محذراً السائق من التقدم، دارت السيارة بأقصى سرعة وتراجعت إلى الخلف، وأحد راكبيها يطلق النار على الحارسين.. شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي.. زخات

المطر اشتدت وتسارعت.. اصطكت أسناني لعدة مرات، ارتجفت البندقيـة بـين يـدي هـي الأخـرى، وزميلـي يطلـق النـار ببندقيتـه السـريعة الطلقـات نحـو السيارة، أسـرعت السيارة ودارت دورة كاملة ثم ارتطمت بجدار وتوقفت.. قفز السائق من السيارة وبيده بندقية واختبأ تحت عجلاتها.. وسمعت رفيق الليل ينثر الشتائم من بين أسنانه المنقبضة بانفعال شديد..

- تحرك يا ابن الكلب.. ثلاثة امتـار فقط.. لا أستطيع أن أتبيّن رأسك أو صدرك من هذه الناحية..

عدّل المنظار ثانية وأضاف: يظهر أن السـائق لـيس وحـده، إن معه رفقة.. ما الذي أتى بهما هذه الليلة!.. إنك لم تقتل من قبـل يـا "شريف" أليس كذلك!، جرِّب حظك.. هنـاك آخر تحت السيارة، إنه حصتك.

حدقتا عينـيّ اتسعت.. حواسي ابتلعت الظلام.. قصّرتُ عمر الزمن، حبستُ أنفاسي وكأني أراقب فيلماً بوليسياً مثيراً.. المسلح الذي يختبئ تحت السيارة دخل مجال مرمـى بندقيتي.. أحسستُ إحساساً غريباً وأنا أحاول أن أضغط على زناد البندقية، وشعرتُ بثقل حركة يدي.. تشنّج إصبعي.. منظار بندقيتي المزود بالأشعة تحت الحمراء ابتلع الرجل المسلح مرة ثانية.. تصبّب العرق من جبيني وأخذ ينساب مع رشقات المطر المتناغمة على وجهي، ثم دوّى صوت انفجار.. صرخ زميلي فجأة:

- لقد قتلته.. لقد نجحتَ في الامتحان.

فجأة أضيئت أنوار المنازل، ثم أطفئت وكأن الناس لا يعنيهم شيئاً مما حدث.

من خلال أشعة منظار البندقية ظهر لي شخصان آخران انبثقا من وسط الظلام.. اختبأ أحدهما قرب جدار، بينما ركض الآخر في الظلال المعتمة وهو يحجب رأسه بين يديه، وكأنه يتّقي الرصاص المنهمر براحتيه..

"أولاد الكلبة".. قال رفيق الليل، وكأنه يُحدّث نفسه وهو يرقب أحدهما بمنظار بندقيته، وأضاف: "ألا تعلم أن الوظائف تتوفر لحملة السلاح قبل حملة الشهادات، اقترب، اقترب، خذها يا ابن الكلب".. وضغط على الزناد، دوّى انفجار.. ترنّح الشاب وسقط وسط الشارع.. صرخ ثانية "لقد قتلته، بقي واحد قرب الجدار".. هزني من كتفي كأنه يدفع الشجاعة في عروقي المتشنجة وأضاف: "الحقيقة أن القتل صعب في المرة الأولى.. لكننا في مهمة، ومهمتنا الدفاع عن حدود المخيم، والمخيم أصبح لنا وطناً، حدود الوطن ضاعت وتراجعت، بل وتقلصت لتصبح فوق سطوح المنازل وأغصان الأشجار والجدران المهدمة، أو قرب جثة متعفنة.. إنه حصّتك، ولا أعتقد أنك ستتركه يفلت من أيدينا".

كان منظار بندقيتي قد ابتلع الرجل تماماً.. هذا الشاب حاول اختراق جدار الأمن، حاول اجتياز الحدود الممنوعة، "حدثت نفسي"، هنا نهاية المطاف، لا أحد يمر من هنا.. تحرك الشاب باتجاه التقاطع.. شعرتُ أن حركته لم تكن غريبة عن ذاكرتي،

لكن تفاصيل وجهه لم تكن واضحة في منظار بندقيتي.. حاول الهروب ثانية باتجاه المخيم.. صرخ رفيقي: "إنها فرصتك، أطلق النار".. لا أدري كيف أطلقت النار وهو يملأ منظار بندقيتي ويركض باتّجاه المخيم.. شاهدته يرتطم بالجدار، ثم يفقد حركته، ويبتلعه الظلام.. قلت بصوت ضعيف وكأني أحدث نفسي: "أعتقد أني أعرف مَن قتلت هذه المرة".

شعرتُ بقشعريرة ثانية.. غرقتُ في وجوم حزين، ولم أعد أسمع ما يدور حولي.. فجأة خيّم على حواسي حزنٌ بليد، وظِلُّ الأرض المحتلة أخذ يطاردني، يملأ جوانحي، ويتدفق في خيالي، البساتين، أشجار البرتقال والحمضيات والزيتون، ووالدي يستظل بظلها.. الأرض كانت تنتحب هي الأخرى.. عويلها كان يصمّ مسامعي وهي تصرخ.. قطع الأعداء الأشجار، حطموا البنيان، انتزعوا رفات الأجداد والشهداء من القبور..

زخات المطر تنهمر وتشتد.. رأيتُ المطر بعينيّ وشعرتُ ببرودته.. صحوت، استعادت ذاكرتي كل ما حدث لحظة بلحظة.. تذكرتُ كل شيء.. تذكرتُ مأساة الماضي والحاضر والمستقبل.. الملاعين أرغمونا على حمل السلاح حين خيّرونا بين الموت أو الذل والرحيل عن الوطن.

تلك اللحظة عرفتُ أن للموت في سبيل الوطن قيمة تساوي بل تفوق الحياة على ترابه.. فجأة انتفضتُ من حلمي الغيبوبة..

تذكرت المهمة التي جئنا من أجلها، والكابوس الذي عشناه في الدقائق الماضية.. كان المفروض أن نكون ثلاثة حراس.. لم يبق منا أحد.. رفيقي أصبح قاتلاً محترفاً.. أنا أصبحت مجرماً، والثالث أصبح صورة على صفحة جريدة.. وعند تقاطع الشوارع على حدود المخيم بقايا مجزرة لأربعة جثث ممددة بإهمال تحت المطر، وسيارة تحترق.

- لا يهم من قتلْت إن كنت تعرفه أم لا..

قال رفيق العتمة بلهجة تشوبها بحّة الخوف المخيفة تحت سياط الجرأة.. وأضاف: "نحن لا ندقق الهويات من هذه المسافة.. المهم ألا يقطع أحد هذا الشارع، إنه حدود المخيم الأخيرة".

ارتجفتُ ثانية.. قلت: "هذا واقع لا يطاق، متى نغادر المكان!، إني أشعر بتعب شديد".

قطع تأففنا صوت سيارة إسعاف تقترب.. يبدو أن أحدهم قد أتصل بفريق النجدة.

***

انتهت مهمة الليل بعد الفجر بقليل.. عدتُ للبيت، كان البيت خاوياً كعهدي به منذ المساء.. ألقيتُ بجسدي على السرير، ورحت أغطّ في سبات نوم عميق.

عند الظهيرة تواردت أخبار المجزرة الليلية قرب تقاطع الشوارع المؤدية إلى المخيم.. وعرفت فيما عرفت أن "محمود

الغزّاوي" وُجد مقتولاً مع زميل له عند نفس التقاطع، بينما كانا عائدين إلى المخيم في أواخر الليل.

شعرتُ باختناق فجائي، وبدأت أتقيأ.. أحسستُ أن تحت جلدي عقارب مختبئة، تقرص وتأكل لحمي، وديدان عالقة فوق الجلد تمتص دمي.. ذاكرتي استعادت كل الأحداث في لحظة.. محمود الغزّاوي كان بين القتلى فعلاً.. كان يختبئ في الظلال، وطلقة الموت بحجم المخيم والوطن تلاحقه.. بيدي وعن سبق إصرار وترصّد، قتلتُ أعز الأصدقاء بطلقة رصاص مجنونة من بندقيتي.

بكل جوارحي حاولت النسيان وتخطي بقعة الدم التي انفجرت كشلال في عينيّ، وكادت تُفجّر رأسي.. لم أستطع، لمتُ نفسي ووبّختها، وبدا ضميري كلوحة مسامير يضغط على حواسي.

أصوات القذائف تتهادى عن بعد، وطلقات القناصين تشل حركة الشوارع، وتحيل الأحياء البشرية المتحركة إلى جثث يصعب الاقتراب منها.. ومحمود الغزّاوي يتلوى في الذاكرة قرب جدار معتم، ويتحنّط في مؤخرة رأسي.. شعرتُ بشيء ما يتمزق في داخلي من جديد، وبدت الثورة نقمة في حياتي.. ملعونة هذه الحرب التي أجبرتني على الإبحار في خضمِّها حتى أصبحتُ قرصاناً.. الثورة علمتني على أقل تقدير كيف أرفع سلاحي وأقتل من أحب عن سابق إصرار وترصّد.. أقهقه عالياً، وامشي في

جنازتـه، ثـم أعـود إلـى البيـت وأتقبـل التعـازي نيابـة عـن ذويـه.. ملعونة هذه الحرب التي أصبحت هوساً ولعنة.

تلك الليلة لم أنم، وعند الفجر أقسمتُ أن لا أطلق طلقة واحدة من السلاح الذي كان يرافقني دائماً.

***

٢

دائمـاً ذاكرتـي تفتقـد اللحظـات السـعيدة، ولـم تعـد تحـتفظ إلا بلحظات الألم والقهر.. حياتي لم تكن مستقرة.. تقلبتُ في أكثر من عمل بعد أن هجرتُ السلاح، حتى يتسنى لي تسديد الأقساط الجامعية، ولم أنقد لتيار واحد في الحياة، إذ كثيراً ما كنت أشعر أني لم أخلق لمثل هذا العمل، فأسارع بتركه وأبحث عن مجال عمل آخر، حتى كدت أنسى الهدف الذي أبحث عنه وأتمناه من هذه الحياة.

منذ صباي وأنا أهوى المطالعة، كنت آمل الكثير، لكن الظروف لم تسعفني أبداً للتفرغ للقراءة والكتابة.. وهذا ما قتل امتيازي ودفعني إلى المقاعد الخلفية لسنوات طويلة..

مجموعة كبيرة من القصص القصيرة المتنوعة مرفوضة، ورواية مخطوطة غير منشورة.. لكن من يبالي.. لم أتعود التوقف على الأطلال واجترار الذكريات.. مقاهي الأرصفة، سهرات الأصدقاء، المحطات الليلة، أحاديث السياسة الجوفاء، الزوغان من الرصاص الطائش، الطيران أمام طلقات قناص مرتزق، وكتب الجامعة شغلت كل وقتي.

***

ذات ظهيرة، وبينما كنت أتصفح إحدى الجرائد داخل حافلة، توقفت الحافلة في إحدى المحطات.. اندفع بعض الركاب نحو الباب الخلفي للنزول، بينما صعدت مجموعة جديدة من الباب الأمامي.. كنت شارداً مع أفكاري عبر أخبار المجازر والموت والقتل على الهوية.. اندفعت فتاة شقراء بشعر ذهبي اللون وجلست على المقعد الفارغ قبالتي.. انساب نظري عبر زجاج النافذة يرقب المارة والهموم التي تلاحقهم في الشوارع الخلفية.. محمود الغزّاوي كان جثة خمد بركانها مع بركان الثورة في أعماقي.. مؤخرة رأسي أصبحت بئراً عميقة لأشلاء ضحايا وقتلة، ومجزرة ما زالت بقاياها عالقة في رأسي.. الشهادة الجامعية أمست هدفاً بعيد المنال، الجامعة مقفلة والدراسة مؤجلة حتى شعار آخر.

مفتش التذاكر أعاد لي صحوتي وهو يطلب التذكرة من الفتاة التي جلست على المقعد المقابل لمقعدي.. كانت تخفي نظرها وتحاول إيجاد تذكرتها بكل الوسائل.. رأيتها تبحث في حقيبتها اليدوية، ثم نظرت إلى أرضية الحافلة.. خلعت حذاءها الرياضي الأبيض، نظرت بداخله أيضاً.. حرّكت ساقها، ثم دفعتها على الأخرى بخجل، في محاولة لإخفاء ما اعتقدت أنه ظهر من تحت تنورتها القصيرة البيضاء.. قالت بعد صمت بدا كساعات: "أعتقد أني فقدتها"، وعقدت يديها على صدرها الذي بدا مخنوقاً تحت بلوزتها الحمراء.

لا أدري كيف تسارعت الأمور وأقحمتُ نفسي في الموقف.. مددتُ يدي إليها بتذكرتي وقلت: "أعتقد أنها تذكرتك".

بخجل شديد وصمْتٍ قاتل، تناولت الفتاة التذكرة وناولتها إلى مفتش التذاكر الذي ثقبها وأعادها إليها بصمت ثقيل أيضاً.. وعندما طلب مني تذكرتي قدّمت له ورقة نقدية، غضب وادّعى أنه لا يملك فكّه، ثم ضغط على مفتاح جانبي في الحافلة، وطلب مني النزول لعدم حجزي تذكرة أثناء صعودي الحافلة.. كنت على يقين أن مفتش التذاكر أساء الظن بي، عندما تقرّبتُ من الفتاة وأعطيتها التذكرة.. لكنني لم أستطع مواجهته، وقبلت بالأمر الواقع حتى لا أسبّب لها إحراجاً أكثر مما هي فيه.

كانت الفتاة تنظر إلى وجهي مباشرة، وأنا أتبادل الكلمات مع مفتش التذاكر.. شاهدتُ حُمرة الخجل وتورّده واضحاً على وجنتيها.. وفي عينيها الزرقاوين بدا اعتذار واضح عما حدث.. وعندما ترجّلتُ من الحافلة، شاهدتها عبر زجاج النافذة تنظر نحوي، والهواء يداعب خصلات شعرها الذهبي اللون.. وبقيت نظراتي تلاحق عينيها، رغم انشغال أفكاري بمحمود الغزاوي، حتى اختفت الحافلة في شارع جانبي بين البنايات الشاهقة.

***

في طريقي إلى الجامعة ذات صباح، فوجئتُ بقناص يشل حركة الشارع، دوّت طلقة رصاص وسقط جريح.. عرجتُ إلى طريق جانبي متخطياً منطقة الموت، ووصلت الجامعة بصعوبة.

جلستُ في الباحة الخارجية أراجع أوراقي وابحث عن نفسي.. بدت حياتي بلون قاتم.. قمت وتمشيت خارج الجامعة متجاهلاً دوي القصف البعيد، وكأنه شيء لا يعنيني.

ثمة امرأة تتمشى في الشارع بِخُيلاء مثيرة للشهوة.. بدت كعارضة أرداف في بار ملعون.. الكل ينظر إليها، لكنها تتبختر وكأنها لا ترى أحداً.. حملقتُ في كل شيء.. الأرداف، الفساتين، السيقان، اللحم الأبيض، البحر الأبيض، البحر الأحمر والبحر الأسود، لكني لم أرَ شيئاً.

على الرصيف المقابل كان شاب يتأبط ذراع فتاة ويتمشى معها.. شعرتُ أن الشارع لا يتسع لفرحته.. قدماي باتتا نهباً للشوارع، والقهر بدا كغيمة تلاحقني وأنا أحدث نفسي عن الثورة الفلسطينية التي دخلت العالم من خلال وجدانه، ومن خلال النور الذي تضيئه دماء الشهداء، الذين بوعي كامل وتفاؤل مستقبلي، اكتشفوا إنسانيتهم، وناضلوا من أجل تأكيدها وتأكيد ديمومتها.. صورة الفتاة الشقراء قفزت ثانية إلى مخيلتي وقطعت حبل أفكاري.. شعرتُ أن قلبي يتسارع في دقاته وأنا الهث.. تمنّيتُ لو أراها ثانية.. شعرتُ وكأن حياتي بدت حلقات متسلسلة من المفقودات، ومجهولة الهوية.. صورتها لم تفارق مخيلتي، توقّفت وتحنطت في مؤخرة رأسي، وأخذت تطاردني منذ أن رأيتها في

الحافلـة، لـم تمحهـا الأيـام مـن ذاكرتـي، رغـم محـاولاتي اليائسـة لنسيان صفحة وجهها.. كنت آدم المطرود من الجنـة، وحـواء مـا زالت عالقة خلف زجاج نافذة الحافلـة تتيـه فـي الأرض، ضـائعة بلا آدم.. تتراءى لي عن بعد كلوحة فنان أسطورية، يُجسّد جمـال الخلـق علـى صفحات الكتـب وبـين السـطور.. ورغـم يقينـي أنهـا ضاعت بين الملايين في مدينة الأحلام والعنف والموت، إلا أنـى لم استطع إبعادها عن أفكاري لحظة واحدة.. نداء ملائكي رقراق ينساب مع نبع المياه كانت تبدو لي، تظهر لحظات ثم تختفي فـي مؤخرة رأسي، كعالم ضبابي في فصل الخريف.

ساعات النهار مرت بطيئة وثقيلة، وأنا أعاني فـي أعمـاقي مـن أثـر نزيـف حـاد.. سفينتي تحطمـت وأنـا غريـق لا أجيد السـباحة وسط تيار عالي الأمواج.. أشعر وصرخة هوجـاء تجتـاح كيـاني، بأن لا مجال لي بالصمود أكثر مما احتملـت.. جرحـي بـدا كبيـراً، وحكايتي مع الغزاوي بدت أكبر مما يتصوره العقل.

توقفت حافلة فجـأة أمـامي وقطعـت حبـل أفكـاري، ابتلعـت ركابـاً جدد وتقيأت آخرين.. راقبتُ الوجوه والحافلة تنساب ثانية، الحافلة غربلت بقايا أفكاري وأذابتها في الشوارع الخلفية العريضـة.

***

٣

طالعتنا أخبار صباح أحد الأيام باعتداء على الجنوب الصامد، وكثيراً ما كانت تطالعنا مثل هذه الأخبار.. عشرات القتلى والجرحى، الدماء نهر بنزيف دائم، والموت حدقات لعيون واسعة تراقب الأحياء.. أجساد الشهداء تتحدى الرصاص، والجرحى يئنون تحت وقع ألم السياط.

أعداء الثورة باتوا يخافون حتى من صور الشهداء المعلقة على الجدران وفي منازل المناضلين.. هدموا المنازل، اقتلعوا الشعب من أرضه، لكنهم لم يستطيعوا قلع الجذور.. باطن الأرض يمخر بجثث آلاف الشهداء، يتحدى الموت، ويعلن عن ولادة جديدة لأجيال قادمة جديدة.

الحرب الأهلية في لبنان تتفاقم، والثورة تدافع عن نفسها، الأبطال يموتون غرباء على أرض غريبة، بيروت تأكل أبناءها، وأنا أحمل غربتي، وأعلن أن الموت أصبح حياة في هذه المدينة العربية الغريبة.

أخي "صالح" جاءني ذات مساء ليبدد غربتي.. التحق بالجامعة ليواصل تعليمه الجامعي أيضاً.. شعرتُ معه أننا ثنائياً ننطلق للحياة معاً، نبدّد الخوف باقتناص العلم والمعرفة، لكن الجامعة بدت حلماً بعيداً.. صالح هو الوحيد الذي لم يتردد في حمل السلاح، لم ييأس، قهر وحدته والتحق بالثورة.. قلت له إنه يسعى إلى حتفه.. لم يصدقني وقال: "إذا كان الوطن سيعود بموتي، فليمت نصف الشعب الفلسطيني أيضاً.. ليمت ثلثاه ويعود الثلث

الأخير فقط".. ودفعني لحمل السلاح معه ثانية، حتى تندمل الجروح ونُبدّد اليأس.. وأضاف: "لا يصيبكم إلا ما كتب الله لكم".

في الجنوب اللبناني كانت الحياة تتأصل وتمتد لأجيال قادمة.. الشهداء يكتبون التاريخ الحقيقي بدمائهم، وأخي يندفع ويقاتل، يتمرد على الزمن ويتطاول إلى السماء، المأساة تتكرر، الشهداء يتساقطون والفناء يلاحق الشعب المشرد.. الدمار في الجنوب شامل، وأسطورة الموت تعزف ألحاناً جنائزية في أرواح المقاتلين، وتبعث فيهم الأمل والنور.

مع كل رصاصة كنت أنطلق ألاحق الأعداء خلف متاريسهم، اقهرهم بصمودي، أتحداهم بموتي، وأخي صالح يتربص لدبابة تتقدم نحونا وتطلق النار باتجاهنا.. قطع أخي شريط صمودي فجأة وأعلن عن نيته بتدمير الدبابة، وطلب مني أن أحمي ظهره.. تلاشى كل شيء أمامي.. نسيتُ كل شيء عداه.. القذائف غطت المكان فجأة، بدأت تتساقط علينا مثل المطر، والخندق الذي نتمترس بداخله عرضة لقصف مركّز.. حاولتُ منع أخي من التقدم، قال وهو يزحف نحو الدبابة: "مِن هنا سننطلق لنحرر الوطن.. إذا بقيت تحلم سيحصدونك ويقيمون إلى الأبد على أرضك".. صرختُ عليه في محاولة أخيرة لمنعه من التقدم نحو هدفه، لكنه لم يسمع، كان يتعانق مع الدبابة وينفجر كالبركان..

تعالت صرخات في الجو، وخُنقت فجأة، انقلب الخندق رأساً على عقب، ملأته الأتربة والغبار.. تلاشى أخي صالح.. تناثرت الدبابة وارتطمت قطع حديدية بأجساد المقاتلين، ودنّست الأرض.

كالمارد كان أخي صالح يقف أمامي ويملأ جبهة القتال، يتمرد على سلاحه، لكن الدبابة الملعونة قذفت بجثته إلى عنان السماء، ولم يعد له أثر على الأرض، كنت ألاحقه، أرتفع معه، احميه من الموت، لكني سقطتُ فجأة ولم أعد أشعر بما يدور حولي.

حين صحوت، كان أحد المقاتلين يضمد ذراعي، ويهزني وأنا أرتجف، كانت أصوات كثيرة حولي.. مقاتلون يحملون السلاح.. جثث كثيرة.. والمقاتل يهزني ويطلب مني الهدوء قائلاً بأن الثوار صمدوا وردّوا جنود الاحتلال على أعقابهم.

بحثت عن أخي في كل مكان، وأنا أترنح والأحق جثث الشهداء المحمولة على الأعناق.. في البعيد البعيد لم تكن جثة واحدة لأخي.. لم تكن قذيفة واحدة.. لم تكن دبابة واحدة.. كان المنظر يتلاشى ثم يعود ليظهر بصورة أوضح وأكبر لشهداء يتلاحقون.

***

٤

بعد رحيل أخـي المفاجئ، تناسيتُ هموم الثورة، وغرقتُ في همومي الدراسية من جديد.. لم أعد أميز الوجوه أو أتفحصها.. شعرتُ بتقلص في أمعائي.. اتجهت إلى مطعم قرب الجامعة العربية لتناول وجبة الغذاء.. تعباً كنت.. استرخيت في انتظار النادل وسرحت في همومي ثانية.. صوت نسائي أيقظني يسأل عما أرغب في تناوله.. كنت أحدق في أرضية المطعم ولا أرى شيئاً، وعندما فتحتُ عينيّ، شاهدت حذاء رياضياً أبيض اللون.

عاصفة هوجاء اجتاحت كياني، رحلتُ إلى عالم نفسي عميق، وأنا استعيد في ذاكرتي صاحبة الحذاء الأبيض.. وعندما رفعت رأسي، شاهدتُ واحة من الجمال أمام ناظريّ.. تطايرت الكلمات من قاموس أفكاري.. أخذتُ أنظر في عينيها كالمجذوب.. تسمّرت هي الأخرى واقفة أمامي مذهولة، وفي يدها كوباً من الماء، لكن أحدنا لم يتفوه بحرف.. رجف الكأس في يدها قبل أن تضعه على المنضدة، ثم استدارت وانصرفت، وبقيتُ للحظات غارقاً في صمتي.

أفقتُ بعد لحظة شرود لا أدري كم امتدت، واندفعتُ وراءها.. كانت واقفة قرب الباب، مسندة رأسها وجسدها على الجدار، وللحظة شعرت أنها ستسقط على الأرض.. سألتها إذا ما كانت تتذكرني!، رفعت رأسها ورسمت تكشيرة كبيرة على وجهها

وقالت بتعجب: "أتذكرك! أنا لا أعرفك أصلاً".. وانسحبت إلى الداخل تتابع عملها وكأن شيئاً لم يحدث.

لا أدري لِمَ بدت هذه الفتاة همّاً جديداً في حياتي يضاف إلى همومي الكثيرة.. ومع أني ترددت على المطعم في الأيام الثلاثة التالية، إلا أني لم أشاهدها تدلف المطعم أو تغادره.. تمنيت لو لم ألتقِ بها في الحافلة، ولم تتربع صورتها في ذاكرتي كوشم.

بكل طاقاتي حاولتُ أن أبعدها عن مخيلتي.. لكني وجدت نفسي مدفوعاً إلى المطعم ثانية.. أعصابي كانت تقرع كالأجراس وأنا أحاصرها بنظراتي هذه المرة.. تهربتْ في البداية.. تجاهلتْ وجودي، وبدت كأنها لا تذكر شيئاً.. لكني كنت على يقين أنها عرفتني.. بدا ذلك من خلال تلك النظرات الحزينة التي كانت ترتسم في عينيها وأنا أحاصرها بكلماتي، تجرأتُ وطلبت مقابلتها خارج المطعم، ومع أنها ترددت، غير أنها وافقت في النهاية على أن نلتقي في مقهى قرب الروشة، بعد انتهاء دوامها من العمل.

في المقهى جلسنا صامتين.. كانت قد استعادت طبيعتها.. عيناها كانتا الأجمل، والشعر الذهبي ينسدل على منكبيها كانسياب الماء الرقراق.. شعرتُ أني نجحت في تحريك المياه الراكدة في أعماقها.. قلت محاولاً كسر حاجز الصمت: "هل تمانعين إذا أشعلت سيجارة؟".

هزت رأسها دليل النفي، وابتسمت.

كمن يراها للمرة الأولى كان شعوري.. تناولتُ وردة من المزهرية الموضوعة أمامي ووضعتها في كأس الماء أمامها، وعندما تناولتُ كأس العصير لأشرب منه، تناولت كوبها هي الأخرى وشربت.. ومع ذلك لم يدر بيننا حديث، لكن النظرات المتبادلة من خلال لمس أطراف الأصابع هي التي كانت تُعبّر عما يجيش في نفسينا.

أخذتُ نفساً عميقاً من السيجارة.. تجرأتُ ونفخت الدخان عليها.. ابتسمت وأشاحت بوجهها.. وعندما وضعتُ سيجارتي على المنفضة، تناولتها وأخذت منها نفساً شفافاً، ونفخته باتجاهي وهي تبتسم.

شعرت أنها تنضح بالبراءة والنضارة والفتنة، كانت تمزج البلوغ الجنسي بسذاجة الطفولة.

- من أين أنتِ؟ أين تقيمين!، وكيف تعيشين؟

عشرات الأسئلة تدفقت مرة واحدة على لساني، وطوّحتُ بها على مسامعها.. علت حاجبيها تقطيبه وبدت علامات حزينة تكسو وجهها.. اعتذرتُ عن أسئلتي وطلبتُ منها أن تنسى كل ما تفوهتُ به لتعود الحياة إلى بشرتها الرقيقة، لكنها لم تفعل، قالت بغير اكتراث وبعصبية مكبوتة، وكأنها تحاول أن تلقي عن كاهلها قذيفة في وجهي:

- اسمي أحلام، فلسطينية، ومبعدة عن وطني منذ عامين.

ملامح الحزن والغضب بدت واضحة على وجهها، وفي نبرة صوتها.. لم أتفوه بكلمة، كنت غارقاً في همّي الجديد، أقلب صفحات حياتها في مخيلتي.. تساءلت كيف لمثل هذه الفتاة الرقيقة أن تحمل كل هذا الغضب!.. من يمتلك الرقة والحزن والغضب في آن واحد غير أبناء الشعب الفلسطيني!.. سألتني وهي تحاول أن ترسم ابتسامة بين شفتيها فوق ملامح الحزن: "وأنت!".. واستعجلت بنظراتها الإجابة..

- أنا غريب مثلك.. أهلي يقيمون في الأردن، وأنا في الجامعة أدرس آداب عربي، سنة ثانية..

قاطعتني: "هل تكتب الشعر!"

- بعض المحاولات، لكني لست شاعراً، وإنما أحاول أن أكون كاتب قصة أو رواية.

كقطعتي مغناطيس كنا نقترب ونتجاذب في تلك الجلسة.. قلت محاولاً الخروج من الشرنقة التي قوقعتُ بها نفسي: "لقد بحثت عنك كثيراً بعد ذلك اليوم.. أتعلمين!".

أبدت استغراباً.. ثم ابتسمت وقالت: "حقاً!".

ذكّرتها بلقائنا الأول في الحافلة، وعن شعوري حين فقدتها.. أغمضت عينيها وهي تنظر في وجهي وقالت بصوت مخنوق:"نعم أذكر"..
قالت ذلك وفتحت حقيبتها، تناولت دفتراً صغيراً من داخلها، ثم تناولت قصاصة ورق صفراء من بين صفحاته، وقالت:

- أجل، هذه التذكرة، انظر، اقرأ تاريخ صدورها ورقمها، أنا لم أنس ذلك اليوم.
- ولماذا تحتفظين بها منذ ذلك الوقت!. قلت لها دون أن أنظر إلى التذكرة.

لم تجب.. أعادت التذكرة إلى حقيبتها، وأخذت تنظر إلى سقف المقهى.. فجأة انحدرت دمعة من عينيها، وسرعان ما مسحتها بظاهر يدها، محاولة إخفائها عن نظري، ثم قالت بهمس وكأنها تحدث نفسها:

- كيف أنسى ذلك اليوم!.. يومها لم يكن معي ثمن تذكرة الباص وأنا أدور في الشوارع أبحث عن عمل.

لحظة عاصفة مرت بخيالي وهي تتحدث.. شعرتُ أنها حزينة حزن سجين في زنزانة انفرادية.. غريبان والتقيا.. دعوتها إلى شقتي التي أستأجرها منذ قدومي إلى بيروت، اعتذرت بلباقة، طلبتُ منها أن أراها ثانية.. تعالت أصوات طلقات رشاش إلى مسامعنا فجأة، وقطعت خلوتنا.. قالت:

- كأن الموت يلاحقنا أينما ذهبنا.

قلت محاولاً طرد علامات اليأس التي بدت واضحة على وجهها: "نحن أقوى من الموت".

لم تصدق.. قالت: "الموت يغص بالجثث ولا يشبع.. الثورة ابتلعت أنهاراً من الدم لتهضم من تبقوا على وجه الأرض".

صغيراً بدوت عند سماع كلماتها.. تهادى إلى مسامعي صوت فيروز الملائكي يغني.. "خذوني إلى بيسان".. أغمضتُ عينيّ على جثة الغزّاوي تتلوى قرب جدار طيني، وجثة أخي صالح تتلاشى.. أشلاء لحمية تتناثر.. كان الموت عاماً طاماً.. المخيم يتمزق، الحياة تتمزق، أنا أتمزق، وأحلام أحلامي تتمزق.

حدود المخيم بدت بعيدة.. حدودها أعماق الوطن.. أما حدودي فقد بدأت تتقلص، ولم يعد خبر سقوط شهيد يثيرني.. بدأت أتقيأ عند سماع الأخبار.. الوطن ملعون، أخذ كل شيء.. الرجال، النساء، الأطفال، الشيوخ والأحلام.. قتل الأمل، واقتلع جذور الخير المدفونة في أعماق البشرية.

أحلام بدت الشرارة النابضة في حياتي، الشعلة التي بدأتُ أرى الحياة الحقيقية على نورها.. تناسيتُ كل شيء عداها، وأحببت أن أعيش معها بعيداً عن الموت والوطن.. تعلقتُ بها، شعرت أني بحاجة للاستحمام في نبرات صوتها ونظرات عينيها.. عرضتُ عليها الزواج.. رفضت بدلال، ثم وافقت أخيراً وقالت بشرط أن لا أتركها مهما كانت الظروف.. وعدّتها بأني سأكون لها الأب والأم والأخ والصديق والزوج المخلص.. ووعدتني أن تبقى بجانبي طالما وهي تتنفس الهواء.. دعوتها للبيت ثانية.. ترددت، وعندما ألححتُ عليها وافقت على مضض.

***

٥

في البيت، بعيداً عن أصوات الرشاشات والقذائف، شعرتُ أنها ملاك صغير حضر إلى بيتي من عالم علوي ليس له علاقة بهذا الكوكب.. نسيتُ نفسي، وبدورها نسيت كل آلامها وأحزان زمنها، وعشنا لحظة حب صادقة.. دار بنا الزمن دورة كاملة.. شربنا حتى الثمالة ورقصت لي على أنغام موسيقى هادئة.. وكانت أجمل وأمهر راقصة رأيتها في حياتي.

طوّقتُ عنقها بذراعي.. كانت تتنفس تنفساً سريعاً وثقيلاً، ولم يعد لإيقاع الموسيقى أي انتباه أو أثر..

في لحظة منسية من عمر الزمن، التصقت شفتاي بشفتيها، اختلط أحمر الشفاه بنقطة دم نزت من شفتيها، فجأة توقفت وتراجعت إلى الخلف.. ضممتها ثانية.. همستُ لها بكلمات حب عفوية.. استسلمت لذراعي ثانية.. وفي تلك اللحظة شعرتُ أنها لم تكن بريئة، لكنني لم أكن بأفضل حال منها.

تلك الليلة كنت آدم، وطعم التفاح ينعش فمي.. حورية وسط جنتي كانت.. وكان جمال العالم يتمثل في جسد أنثى واحدة.

تحولت رجولتي إلى طفل في لحظة نشوة، وحبيبتي قطعة من الحلوى أريد بشتى الطرق أن ألتهمها.. لم يكن لنا الخيار، وتلاشينا في لحظة ضعف وامتزاج في نشوة الحب.

حين صحوت كانت تتألم وتبكي بحرارة، تشد شعرها بيديها وتصرخ: "ماذا أفعل الآن!.. أين أدفن وجهي وعاري!؟".

كان التعب قد هدّني، تناولت جرعة ماء من كوب وجدته أمامي، وقلت لها بأني أحبها وسأتزوجها.. فقالت بلهفة وألم: "استرني يا شريف، أرجوك".

احتويتُ رأسها بين ذراعي وقلت: "غداً نعقد القران ونتزوج".

***

تلك الليلة عشت اللحظة بأوجاعها.. كانت تنظر إليّ بقسوة، تتسع حدقات عينيها، تتألم، تلتهبان ولا تقفز منهما دمعة تطفئ لظاهما.. تُسرع إلى الحمام، تحاول أن تتقيأ، تشعر أن أمعاءها تقفز إلى حنجرتها.. تكاد تختنق.. تعود والذل يحاصرها ويخنقها، ثم تقول بصوت مكسور: "استرني يا شريف.. لم يعد لي في الدنيا غيرك".

ثلاثة أيام بلياليها مرت بعد تلك الليلة.. لم نغادر الغرفة، وأحلام تلح علي أن أعقد القران عليها حتى ملّت وجودي ووعودي، وأنا غارق في صمتي، أشعر بالخوف والفضيحة أيضاً.

أسئلة كثيرة دارت في رأسي فجأة، حاول عقلي بكل قواه أن يترجمها بطريقته، وأن يجد أجوبة لها ترضيه.. وللحظة شعرتُ أن العلاقة التي تربطني بأحلام هي نوع من المتعة المحرمة.. أحلامي وخيالاتي طرقت كل أبواب الفسق والدعارة والفجور، وأحلام هذه التفاحة المحرمة، باتت في أعماقي جنة المتعة التي لا

يمكن أن أقترب منها ثانية، رغم جمالها الذي سلبني إرادتـي.. إذ لا يمكن أن تكون بريئة تلك التي تستسلم لرجل عند أول لقاء.

تجاهلتُ طلبها لأيام عدّة، كذبتُ عليها وعلى نفسي.. شعرت بالخطيئة والكذب معاً للمرة الأولى، ولا أدري كم مرة بعد ذلك كذبت عليها وعلى نفسي.

عندما أتيت لمتابعة دراستي الجامعية، لم يكن بمقدوري أن أقرر مستقبلي.. الجامعة تعطلت، وجدتُ نفسي أحمل السلاح أدافع عن أبناء المخيم المهجّرين من الوطن.. وحين أطلقت النار، أصبحت قابيل الثورة ولعنة الدم تطاردني حتى في أحلامي.

محمود الغزاوي غيّر مجرى حياتي، وأخي صالح ضيّع مستقبلي باستشهاده، أما أحلام فكانت أول ضحية واجهتني.. دفنتُ كل آلامي وتعاستي في جسدها، وحين طردتها من أفكاري، اكتشفتُ أنها هي التي أرادت يوماً أن أكون كل شيء في حياتها، بعد أن صرّحت لي بأني عالمها الوحيد الذي ليس لها غيره.. وعندما أخبرتها بأني على غير استعداد للزواج في هذه المرحلة، قالت بأني كالكابوس الذي جثم على حياتها وغلفها، وخرجت من البيت دون أن تنبس ببنت شفة.

أحلام وأنا سقطنا معاً منذ التجربة الأولى.

***

٦

منذ أيام عدة التقيتُ ب "فارس"، أحد زملاء الدراسة الثانوية، طلب مني أن يقاسمني السكن لعدة أيام حتى يجد شقة صغيرة ويرحل إليها.. ومع أن علاقتي به لم تكن جيدة في الماضي، إلا أني أفردتُ له سريراً في الغرفة حتى يتدبّر أمره.

أغلقت الجامعة أبوابها ثانية، مما دفعني لمرافقة أخوة السلاح إلى جنوب لبنان.. كنت بأمس الحاجة للهروب من أحلام.

كان الجنوب يعجّ برجال المقاومة، والمتظاهرون يجوبون شوارع المدن منددين بالأعداء وعملائهم.. تحدى المتظاهرون كل من وقفوا في وجوههم، صمدوا، الرشاشات حصدتهم، تساقطوا.. تصدى حراس الثورة ورجال المقاومة للعملاء، هاجموهم وأطلقوا زخات من صواريخ الكاتيوشا إلى أعماق الأراضي المحتلة.

أقام العملاء حاجزاً وراحوا يوقفون المارة ويتصيدونهم.. أوقفوا أحدهم، أداروا ظهره قبل أن يسألوه عن بطاقته، أغمضوا عينيه وأطلقوا عليه النار.. فتشوا البيوت وقبضوا على العشرات من المقاتلين، وزجوهم في السجون بلا استجواب.

في السجون كانت حياة الثوار تتوالد من جديد.. كان العملاء يقتادون السجناء إلى أحواض حديدية كبيرة تعكس أشعة الشمس، ويأمروهم بالركوع والتربع فيها، كانت الحرارة عالية والأجسام

عاريـة تمامـاً.. ومـع ذلـك صـبر السـجناء لسـاعات طويلـة وهـم ينشدون ويرددون : "أنا صامد، أنا صامد"..

أطفأوا بقايا سجائرهم في راحات أيديهم، في صدورهم، في عيونهم، لكن الصوت لم ينطفئ.. "أنا صامد.. أنا صامد"..

سياط الجلادين كانت تطارد أجساد السجناء، وأنا يطاردني كابوس أحلام.. كانت تجلدني، وأشعر أن الله يعاقبني على ما فعلته معها.. بدأت أتعذب.. قمت بأكثر من عملية في الجنوب.. كنت أندفع للموت، وملك الموت يهرب من أمامي، يدفعني دفعاً للعودة إلى أحلام.

***

بعد أن نجوت من الموت أكثر من مرة، وبعد ما ينوف الثلاثة أشهر، عدتُ كما الجنوب صامداً للبيت.. فارس لم يترك البيت كما وعدني.. قال وهو يرتدي ملابسه ويهم بمغادرة البيت:

- أثناء غيابك أتت لزيارتك فتاة لم تخبرني عن اسمها، لكنها شقراء جميلة جذابة.. قالت إنها على استعداد أن تفعل أي شيء لترضى عنها..

تراءت لي صورة أحلام وفارس يبتسم بخبث.. تابع بمكرٍ واضح: "يا لغرورك يا أخي، وتظهر أمامي أنك أطهر من سجادة صلاة".

استفزني بكلماته.. قلت: "وماذا أيضاً!".

أجاب بغير مبالاة: "لا شيء.. قدّمتُ لها زجاجة بيبسي".. وضحك، ثم أضاف: "وأنت أعرف مني بها، فالغريق يحاول أن يتمسك بقشة".

حاول أن يبدو طبيعياً وهو ينظر في المرآة ويعدل من ربطة عنقه، وكأنه يعرف تفاصيل حكايتي معها.. وأنها زارته أكثر من مرة بحجة السؤال عني.. أضاف: "ماذا فعلتَ لهذه الفتاة الشقراء الجميلة!".

لم أُبدِ لكلامه اهتماماً، وتجاهلتُ ما قال.. خرج متذرعاً بأنه على موعد مع أحد الأصدقاء، قائلاً أنه وجد سكناً آخر وسيعود بعد ساعة ليأخذ أغراضه.

الساقطة.. "حدثتُ نفسي".. هل روت لفارس كل شيء!، هذا يعني أنها جلست معه الساعات الطوال.. وفي قرارة نفسي تساءلتُ إذا كنت أحبها فعلاً أم هي نار الغيرة!.. وعندما شعرتُ برغبة جارفة لرؤيتها، تأكد لي أني أحبها بكل حواسي.

***

بعد أكثر من أسبوع دق جرس الباب.. رأيتها تقف قربه صامتة وحزينة..

في البيت حدثتها عما قاله فارس عنها.. رفعت بصرها إليّ متفحصة وسألتني إذا كنت قد انتهيت!.. قلت: "انتهيت من ماذا؟"

قالت: "من قصتك، هل تُلفق لي قصة جديدة للخروج من حياتك؟".

لم أجب، أضافت: "ألا تعتقد أن صديقك يكذب عليك!".. صمتت لحظة، ثم أضافت بصوت حزين:

- شيء واحد آسف عليه حقاً، أني وثقت بك.. كان يجب أن أعرفك على نحو أفضل.. على كل حال لا يهم الندم الآن.. إنما الخوف من الفضيحة..
- أي فضيحة تتحدثين عنها!.. لا تكوني سخيفة، فالحال من بعضه.. كلنا سواء، وأنت لم تكوني أشرف مني تلك الليلة.

وقفت فجأة، حاولتُ تهدئتها، قلت:

- أجلسي، وكفّي عن التصرف كالأطفال.. أرجوك لا تجعلي الأمور أكثر صعوبة..
- أنت الذي تجعل الأمور أكثر تعقيداً بالنسبة لي ولنفسك.. إنك تخدعني وتخدع نفسك.

قالت ذلك بعصبية واضحة واتجهت نحو النافذة، وقفت تنظر إلى الخارج وتمسح الدموع من عينيها.. تقدمت نحوها، ضممتها إلى صدري.. صدتني بلطف، وقالت:

- ثمة شيء كنت أرغب أن أحدثك عنه.. لكن لا يهم.. كان ينبغي أن أكون حريصة على نفسي أكثر من ذلك. وانسحبت تنظر إلى الشارع العريض..

- إذا كان الكلام يريح أعصابك، واصلي الحديث.. تحدثي.

نظرت إليّ، أضافت وكأنها لم تسمع: "لا شيء، لا شيء.. إنس الموضوع، سأجد مخرجاً". واتجهت نحو الباب.. وقفتُ في طريقها، فقالت بتحد:

- لا تحاول.. أنت فضحتني بما في أحشائي، وسأرفع عليك قضية بتهمة الاغتصاب إن لم تتزوجني.

كالصاعقة كان وقع كلماتها على نفسي، شعرتُ أن آلاف الطلقات النارية تخترقني وتمزق جسدي.. شردت أفكاري لحظة، ملايين الأسئلة اجتاحت كياني، لكني سيطرت على أعصابي وأقنعت نفسي بأنها تحاول أن تجد نقطة ضعف تلج بها إلى حياتي.. قلت ألاطفها:

- من قال لك أني لن أتزوجك.. أنت لا تعرفين مقدار حبي لك.

قالت بحزم: "مللت وعودك الكاذبة، وبطني يكبر يوماً بعد آخر.. تزوجني قبل أن نُدمّر علاقتنا وتلوكنا الألسن".

قلت أمازحها وأنا أضمها بين ذراعي: "لكن يا حبيبتي ألا يمكن التخلص من الجنين!".

نظرت إلى وجهي مباشرة وقالت: "أنا لا أريده منك أيضاً، لكن تزوجني أولاً وسأجد طريقة للخلاص منه".

تأكدتُ أنها جادة في كلامها.. تراجعتُ أمام كلماتها، شعرت بالخوف فعلاً، وسرح تفكيري في البحث عن حل سريع.. لكنها لم تعطني فرصة الاختيار.. فقلت: "دعينا نفكر بهدوء يا حبيبتي"..

قالت وكأن طلقات رشاش اخترقتها: "لا تلفظ هذه الكلمة على لسانك.. إنك لا تعرف معنى الحب".. واتجهت نحو الباب، لكني أقنعتها بالبقاء حتى نجد الحل، خاصة وأن فارس رحل ولن يعود إلى البيت ثانية.

تبادلنا تلك الليلة جُملاً تشبه كتلاً من المباني السكنية التي أصابها زلزال مدمر، وتساقطت فجأة.. بدت الكلمات التي تبادلناها، كما لو أن جيشاً من الذباب انطلق هادراً عبر الظلام يغزو حياً شعبياً مليئاً بالقاذورات.

أحلام كانت القشة التي قصمت ظهري، أضافت همّها إلى همّي، ولم يعد أمامي أي خيار.. خوفي من الفضيحة أمام زملاء الجامعة ورفاق السلاح جعلني أنسى زمني.. أهلي، موت أخي، الدراسة الجامعية.. أحلام كانت تجربتي الوحيدة في الحياة.

صباح اليوم التالي وجدت نفسي خارجاً من المحكمة الشرعية وفي يدها قسيمة الزواج.. شعرتُ أن بقايا أفراحي قد ذبلت وماتت.. وعذابات أحلام تحولت إلى أفراح.. لكن ذلك لم يمنعني عن إبداء رغبتي بالتخلص من الجنين!.. أسبلت عينيها وقالت:

- الآن لو تطلب مني الموت، لقدّمتُ نفسي قرباناً لك.

لم أتراجع عن موقفي، قمت بزيارة طبيب نسائي برفقة أحلام.. أوضحتُ له بأننا غير مؤهلين لإنجاب أطفال في زمن التيه والحرب والقتل على الهوية، ثم أبديتُ رغبتي بالتخلص من الجنين.. فقال: "آسف، ليس بوسعي مساعدتك، إن ما تطلبه مني عمل إجرامي، قد أذهب بسببه إلى السجن.. وضميري!، أين أذهب منه حين أقتل طفلاً لا حول له ولا قوة".. ثم قام بإبداء نصيحة لي بأن أشكر الله الذي وهبني هذه الفتاة الجميلة، ورزقني بطفل منذ بداية حياتنا الزوجية.

في الطريق إلى البيت كنت أعاني حالة ضيق نفس حادة، وأنا استرجع لحظات الحب المحرم.. تقطّب جبينها وكادت تصرخ في الشارع.. وفي البيت أخذت تقفز عن السرير وتحمل مقعداً وتضعه فوق بطنها.

نظرت نحوي وأنا أرقبها دون أن أبدي ساكناً وقالت: "سأعرف كيف أتخلص منه.. أنا لا أريد ابن حرام أيضاً".

***

٧

التقيتُ بفارس ثانية بعد رحيله من بيتي.. لاحظ همومي، وجدت نفسي أفضّ له مغلف أسراري، ورغبتي في التخلص من الجنين.. قال: "إذا كنت مُصرّاً على إجهاضها، اعلم أن هذا يكلفك الكثير من المال"..

أبديت له رغبتي واستعدادي لدفع أي مبلغ، فقال بأنه يعرف طبيباً متخصصاً بالعقم والولادة، ورافقني لمقابلته في عيادته.

قال الطبيب بأنه لا يميل إلى هذا النوع من العمليات.. لكن ظروف الحرب تُجبر الإنسان على أن يتخلى عن جزء من مبادئه.. ثم طلب مني خمسمائة دولار مقابل أتعابه على أن يقبضها قبل العملية نقداً لا شيكات بنكية..

ساومته إذا كان يرضى بمبلغ أقل.. فأجاب بأن سعره محدود، وأن العملية ليست خطيرة لهذه الدرجة، لكنها جريمة يُعاقِب عليها القانون.

فارس أبدى وساطته، وطلب من الطبيب أن يقبل بنصف المبلغ مقدماً والنصف الثاني بعد العملية.. فقال الطبيب: "طالما فارس هو الكفيل فأنا موافق، أحضر زوجتك غداً صباحاً، ولا تدعها تتناول شيئاً من الطعام".

في الموعد المحدد ولجتُ عيادته مع أحلام.. أخذني إلى غرفة جانبية وطلب مني المبلغ.. وبعد أن عدّ النقود بعناية طواها ووضعها في جيبه، وقال: "عُد في الخامسة مساء، وأنا سأتدبر الأمر مع زوجتك".

في الخارج كان الناس يجيئون ويذهبون.. يتحينون لحظة الهدوء التي تسبق العاصفة.. يتسوقون ويقضون حاجاتهم، وأنا أتجول في شوارع خالية حتى من الهواء.. انطلقت رصاصة وارتطمت بجدار قربي.. انبطحت على الأرض.. كانت هناك جثة هامدة وسط الشارع.. صرخ أحدهم: "لا تتحرك، القناص فوق سطح البناية".

زحفتُ على الأرض.. لعلع صوت رشاش من الجهة المقابلة.. تناثرت مجموعة من المقاتلين في الأزقة يرقبون طلقات القناص.. كانت الدماء تتسرب من الجثة وتشكل أمامي نهراً متعرجاً يسبح فيه أخي صالح.. يغوص، يغرق، يتلوى محمود الغزاوي قربه، وتمتد أيديهما ليتصافحا.. الذراعان يمتدان ويصبحان بطول المسافة التي تفصلنا عن الوطن، لكنهما لا يلتقيان.. طعم الموت غريب.. أنا بانتظار الموت، أتلوى أيضاً، لكنني لا أشعر بخوف.. المقاتلون حددّوا مكان القناص.. انهالت عليه الطلقات من كل جانب.. حاصروه، زحفتُ إلى ممر جانبي.. هرولت إلى شارع فرعي، وعدت إلى البيت.

مرّت الساعات طويلة وقاتلة.. في الخامسة عدت ثانية إلى عيادة الطبيب.. لم أجده.. سرحتُ عبر دوامة من الأفكار اللعينة، وشعرت للحظة أن الله يعاقبني على أسوأ عمل قمت به في حياتي.

بعد ساعة تقريباً وصل الطبيب.. سألته عن أحلام!، فطلب باقي المبلغ.. أخبرته بأني سأدفعه حال رؤيتها سالمة: فقال: "اطمئن، وتعال غداً صباحاً".. ألححتُ عليه لرؤيتها، فقال:

- لا تقلق.. ستبقى زوجتك هذه الليلة تحت المراقبة الطبية.

لم أنم تلك الليلة.. شعرتُ أن أحلام كانت تملأ تفكيري.. اجتاحتني نوبة من الأفكار اللعينة.. ماذا لو حدث لها شيء، والطبيب يكذب عليّ!.. وأحلام، ماذا لو عرفت أني كذبت عليها حين أخبرتها أن الطبيب سيجري فحصاً عادياً ليتأكد من سلامة الجنين!.. كيف ستعيش!، وأية راحة يجدها المريض إذا علم أن من خدعه هو ذلك الإنسان الذي كان يثق به ويحبه حتى العبادة!؟.

في الصباح كان الهدوء يعم المدينة.. المقاتلون فقط هم الوحيدون الذين يجوبون الشوارع.. أسرعت نحو الطبيب.. ثمة عدد كبير من المرضى والجرحى يجلسون منتظرين دورهم.. الهواء مفعم برائحة العقاقير الطبية.. وامرأة حبلى تسرع لتتقيأ في

مغسلة قرب الباب.. منظر القيء جعلني أستفرغ كل ما في أحشائي.

فُتح الباب وخرجت امرأة.. اندفعتُ إلى الطبيب.. قال: "هل أحضرت بقية المبلغ؟".. ناولته المبلغ وسألته عن أحلام!.. فقال "إن نفسيتها متعبة ولا تريد أن ترى أحداً".

- أي شيء ساخن لا بد أن يبرد في النهاية.. إنها غاضبة، لكنها حتماً ستلين عندما تراني..
- إنها لا تريد أن تراك أنت بالذات، لهذا غادرت غرفتها قبل أكثر من ساعة.

لا أدري كيف هجمتُ عليه.. أذكر أني ضربته بكلتا يدي، وهددته بالقتل، فجأة اقتحم الغرفة ثلاثة رجال مسلحين، ولم أجد نفسي إلا خارج العيادة.

في الليل لم أشرب إلا القليل، ومع ذلك كنت ثملاً بخمر آخر أكثر سطوة، اختفاء أحلام المفاجئ..

طيلة الليل كنت أقاتل شبحاً.. جثة هامدة.. كابوس ملك عليّ عقلي، وظل يمارس سطوة أكثر خطراً من أي مرض جسدي.

كان ينبغي أن لا أتركها تختفي من حياتي مرة ثانية.. ينبغي أن لا أفرّط بالمرأة التي أحبتني ووثقت بي لأقاسمها الحياة.. لا أدري كيف أحبها، وأتقاتل معها بعد وقت قصير!.

أقنعت نفسي بأنها ستقدر ظروفي، وتعود لتقاسمني الحياة من جديد.. يبدو أني تنازلت عن مبادئي وشرفي، وأحببت فيها اللعنة، ثم أحببت فيها حياة الجحيم.

بعد يومين عادت.. جاءني صوتها منكسراً من حوافه.. قالت: "لم أجد مكاناً يأويني".

شعرتُ أن قلبي ينزف نزيفاً حاداً.. بلهف الشوق مددتُ لها ذراعي.. بكت على صدري بحرارة.. واكتشفت ثانية أن حب أحلام نوع من طقوس العبادة.

إتّهمتني أحلام بأن عواطفي لا تظهر إلا إذا غابت عني.. قالت إن عواطفي رشوة، نوع من إطالة عذابها، وإنني لا أعرف كيف أحب، وعليّ أن اعترف بأني لا أحبها وصرخت: "الشك يعذبني، وأنا لا أعرف ما الذي تريد أن تفعله معي في اللحظة القادمة**!**".

عاجزاً وجدت نفسي أمام كلماتها، لم أستطع أن أعبّر لها عن عواطفي تعبيراً مقنعاً.. قلت "أنتِ أسعد أيامي وأتعسها".. لامست يدها شعر رأسي، داعبته بين أصابعها، سقطت دمعة من عينيها على وجهي، لم أستطع أن أنظر إلى عينيها مباشرة، سمعتها تهمس وكأنها تحدث نفسها: "ماذا أفعل بك يا زوجي العزيز، الموت أهون عليّ من الحياة بدونك".

***

٨

أحلام كانت ناراً تحرق حواسي.. أغلقنا على نفسينا الباب، وانقطعنا عن عالم الأحياء، انزوينا نراجع حساباتنا وندققها، ولم نعد نرَ الناس إلا عندما نخرج لنتسوق أثناء فترة تعب المقاتلين وصمت الرصاص.

فِكْرة الموت كانت تتغلب على الحياة في رأسي.. تناسيت الجامعة والهدف الذي جئت من أجله إلى مدينة العلم والموت، وانقطعتُ مع أحلامي في سجن اختياري.

فكّرتُ أن أفضل طريقة للخلاص من هذا الوضع هو العودة للكتابة حتى تفتح الجامعة أبوابها، وهي الطريقة الوحيدة التي أحصل بها على المال الذي احتاجه دون أن أرى عيون الناس.. كتبتُ صفحات عريضة وطويلة، وبعثت للصحف ما اعتقدت أنه صالح للنشر.. لكني لم أجد سطراً واحداً مما كتبت في أية صحيفة.

قالت لي أحلام ذات مساء خريفي، وهي تستعجلني لأعود إليها، بعد كتابة صفحة أو صفحتين: "ماذا تكتب!"..

فاجأني سؤالها.. قلت: "ماذا يهمك من الكتابة طالما كل ما أكتبه لا يُنشر!".

ابتسمت وقالت: "أنا فضولية، وأحب أن أعرف ما تكتب".

صرفتُ النظر عن ملاحظتها وقلت: "إنه لا يهمك".. لكنها أصرت وقالت بدلال: "هل تكتب عني!".

لم يخطر ببالي سؤالها.. لكني شعرت أنها بدأت تثيرني وتستفزني بأسئلتها، وكأنها تقول لي: "طالما أن كل شيء لا يُنشر، فلماذا إذن لا تكتب عني، أو تفكر بي!".

قلت: "انسي أمري وأمرك لثانيتين".. ناولتها صفحة مما كتبت، وأضفت: "ما رأيك بنوعية الكتابة!.. على أية حال إنها ليست عنك".

قالت وهي تنظر بين الأسطر: "إنك تكتب عن الحرب والموت، وأنا لا أستطيع أن أحكم.. فأنا لست مثقفة كما يجب".

- إذن لماذا تسألين عما أكتبه!؟

قالت وهي تُسرّح شعرها: "لأني أحبك، وأحب كل ما له صلة بك".

- إذن سأخبرك.. أنا أكتب قصصاً، لكنها لا تنشر، وإلا لكانت من روائع القصص.

قالت بتعجب: "ولكن لماذا لا ينشرون لك!".

لم أعرف كيف أجيبها، شعرت أنها تتكلم بعفوية.. قلت:

- أنت قولي لي.. كيف أنشر ما أكتب ونحن نعيش هنا كأبرصين في قبو مغلق!؟.

لم تجب، أضفت: "في الواقع نحن بحاجة إلى الخروج من هذا المأزق الذي أوقعنا أنفسنا فيه.. كأن نخرج من هذا الكهف، نتجول ونقابل الناس والأصدقاء، ونحاول العودة إلى الحياة"..

ابتسمت لهذه الفكرة، ولم تصدق أني أعرض عليها التنزه والخروج من البيت معاً.. شعرتُ أنها كادت تطير فرحاً وأنا أتقدم نحوها، وحين طوقتها بذراعي، انتزعت منديلاً ورقياً وشرعت تجفف عينيها من دموع الفرح كما قالت.. اخترقتني رجفة حادة كأنها السكين.. كان لها القدرة المتميزة على إثارة جنوني، جعلت حتى أطراف أصابعي تنبض بوجع الرغبة المحمومة، شعرها الأشقر الضائع بالعطر، المصفوف بعناية، وجمال جسدها ذكرني بفقدان الطريق في غابة ذات ليلة مقمرة.

دنوتُ بوجهي من وجنتها التي ندّاها الدمع.. شرعت وهي لا تزال على صمتها تهز رأسها في محاولة لإبعادي.. نحيّتُ شعرها جانباً، وحاولت تقبيلها.. كانت شفتاها كصباح جليدي، وعبق عطرها يتسلل من فتحات ملابسها عند كتفيها، فجأة كما لو التهمتها نار غامضة، بدت كاللهب المتقّد في موقد يتوهج بمزيد من الضراوة حين تمر عليه نسمة هواء، دفعتني بلطف بيدها، لكن شفتي أطبقت على شفتيها رغم محاولة الإبعاد، راحت الحافة الصلبة لشفتيها تمعن في الذوبان مثل قطعة من السكر في شاي ساخن.

قادت أصابعي على نحو مراوغ في اتجاه أكثر جدوى.. تشابكت أصابعنا.. كان ذلك بداية اهتياج نحو حياة جديدة.. وجهها كان يفيض باللون الأرجواني.. كانت الرغبة جامحة.. احتضنتها.. تشعّث شعرها.. تهاوى الفستان فجأة.. فجأة دوى صوت انفجار.. تساقط زجاج نوافذ البناية التي نقيم فيها.. أصوات الرشاشات التي تلت الانفجار قلبت هدوء الليل إلى عاصفة.. تعالت الصرخات.. ركض الجميع على السلالم، تمزقت الجثث، تناثرت أشلاء أخي صالح في مخيلتي.. قشعريرة غزت جسدينا.. ارتجفت أحلام والتصقت بجسدي، أصوات الاستغاثة اخترقت مكامن الصحو في كياني، أبواق سيارات الإسعاف والنجدة اقتربت بسرعة فائقة.. أحلام تلاشت أمام ناظريّ، تهاوت على الأرض تبحث عن فستانها في العتمة، بعد انقطاع الكهرباء مباشرة.. وعلى الرغم من أن عينيها كانتا مغمضتين إلا أنها شعرت بنشوة في عمق البحر، وأخذت تنحل تدريجياً في الظلمة.. المنطقة أضيئت بكشافات محمولة على السيارات.. اخترقت الأضواء الغرفة.. أحلام بدت لي فجأة كالأفق الشاحب عند الفجر، وفجأة انتهى كل شيء.

رقدتُ بجانبها على الأرض، ورحنا نحدّق في السقف دون أن ننبس ببنت شفه.. شعرتُ أن نظراتنا كانت تلطم السقف، تمنيت لو ينهار فجأة، وأنتهي من عذاب تلك اللحظة.

كنت دائماً أشك أنها مذلة كبرى.. أن تذلني امرأة جميلة بجسدها وفتنتها.. الزوايا المظلمة هي التي كانت تثيرني، وهذه حقيقة لم أدركها إلا بعد فوات الأوان.. تلك الليلة، شيء ما بدأ يتمزق في أعماقي، وأخذت أتلوى من الألم المفاجئ في أسفل بطني.. لكنني لم أستطع الوصول إلى الرعشة المجنونة رغم المحاولات العديدة.. شعرتُ أن لعنة جديدة أضيفت إلى بقية اللعنات في حياتي.. أن تعجز جنسياً عن ممارسة الحب مع امرأة تتمناها.. إنها لعنة وإذلال.

بدت ظلال السقف تتشكل أمامي كخيوط سوداء، والغرفة تُعتم.. أحلام غاصت في الصمت.. وبدأ سمّ فاتر ينغل في أعماقنا، ويقطع أوصال علاقتنا.

كان البحر الشاسع بأمواجه يتلاطم أمام ناظري، وأنا أنظر من النافذة.. أشعر وكأن الأمواج المتكسرة على الشاطئ تُصدر زئيراً.. الزئير يتحول إلى صيحة، الصيحة إلى صراخ، والصراخ إلى عذاب.. بدت الأفكار كالأمواج تندفع مهاجمة تترصد هدفها بعزم قاتل، قبل أن تصل إلى نهايتها المأساوية.

أحسستُ أني أذوب في العدم.. ولأول مرة عرفتُ كم هو الموت الإجباري صعباً وقاسياً، واكتشفت أن الغضب الساطع آت لا محالة من خلال رصاصة صغيرة، تُقزّم الحياة وتشل الحركة.

أحلام أصبحت لعنة متجذّرة في حياتي، امتدت الجذور وتشعبت، رؤيا طاردتني تلك الليلة مثل كابوس جثم فوق جسدي..

كنا في رام الله، وكان عمري خمسة أعوام.. أخي صالح كان رضيعاً، اقتحم جنود الاحتلال البيت فجأة.. صرخوا في وجوهنا، بعثروا كل شيء.. دفعوا أبي إلى الزاوية.. قلبوا البيت رأساً على عقب بحثاً عن أسلحة "كما قالوا".. أمي تصدّت لهم.. صرخ أخي.. تكورّتُ أنا في حضن أبي.. تحرّشوا بأمي.. مزقوا ثوبها، اندفع أبي بقوة نحوهم.. بكعوب بنادقهم انهالوا عليه.. الدم غطى وجهه، أمي قاومت بعنف، أطلق أحدهم النار.. أصيبت أمي في ساقها، احتضنتها وغرقت معها في بحيرة من الدماء.. لطّخ الدم ملابسي.. جرّوا أبي إلى الخارج.. زجّوا به في سيارة جيب عسكرية، واقتادوه إلى السجن.. في أعماقي ما زال أخي الرضيع يصرخ، وأنا أصرخ.. أصرخ.. أنبح، يلاحقني النباح، تلاحقني اللعنة.. تلاحقني الكوابيس.. تلاحقني جثة أخي.. توقظني أحلام من أحلامي المرعبة.. تطلب مني أن أشرب ماء.. أغسل وجهي، أصحو.. ذاكرتي تحاول استرجاع شيئاً مفقوداً.. لا أذكر شيئاً.. أحلام كانت الأمل المفقود.. دفنت رأسي بين راحتيّ، وأخفيت الدمعة المتحجرة في عينيّ، ثم دعوتها للخروج من هذا السجن الذي غلّفنا أنفسنا بداخله.

***

٩

في شارع الجامعة العربية التقيتُ بأحد زملاء الكلية.. كانت أحلام ترافقني.. سألته عن أخبار الدراسة!.. تأوه وقال:

- أما زلت تذكر!.. أعتقد أننا سنفوز بالشهادة الحقيقية قبل أن نحصل عليها من الجامعة.
- فأل الله ولا فألك. قلت.

تدخلت أحلام وقالت له: "لا تكن متشائماً لهذه الدرجة.. فكلا الشهادتين تحققان النجاح".

دعانا إلى بائع عصير القصب.. وافقت أحلام قبل أن أقبل الدعوة.. شعرتُ أنها تحاول ملاطفته بلا سبب، رأيتها تبتسم له.. كظمتُ غيظي، وأبديت عدم ملاحظتي.. لكنها تمادت وابتسمت له ثانية.. بدت الشكوك تلاحقني بتصرفاتها.. شككتُ فيها منذ أن قابلتْ فارس أثناء غيابي عن البيت.. ثارت الدماء في عروقي.. في البيت وبّختها.. وجدت نفسي أنعتها بالخيانة، وأنها تحب التلاعب بعواطف الناس.. لكنها لم تصمت، لأول مرة رأيتها تثور في وجهي.. تتمرد وتتهمني بالفشل.

كانت المفاجأة أكبر من أن أتصورها، وهي ترد بهذا الأسلوب وهذه القوة.. تبخّرتُ أمام نظراتها، كفأر أنكمش وتكور أمام مخالب قط.. تقوقعتُ على نفسي وانكمشت، ولذت بالفرار من عينيها.

أمام كلماتها النابية، تمنيّتُ أن أحفر أخدوداً مثل خلند أرضي، أغوص في باطن الأرض ولا أخرج منه.

بعد ساعة زمن، تراجعتْ عن موقفها.. اعتذرت، بكت.. لم أتحدث معها، وبقيت طيلة الوقت انتهز فرصة للانتقام لمشاعري.

توالت ثرثرتها تلك الليلة بمذاق مرير، مضت إلى غرفتها، تناولت مجلة نسائية كانت ملقاة على الأرض، شرعت تقلب صفحاتها بتوتر واضح.. مضيتُ إليها.. كانت عيناها تغرغران بغشاوة من الدموع، وقفتُ أمامها.. طوقتها بذراعي.. سرت قشعريرة في أنحاء جسدها.. لم تتحرك.. كانت تقلب المجلة بصورة آليه.. قلت: **"لا أدري ما الذي حدث لعلاقتنا!"**.

لم تُجب، أضفت: "أعتقد أنه من الأفضل أن أغادر غرفتك الآن".

- وأنا أيضاً أعتقد ذلك. قالت وهي تنظر في صفحة من صفحات المجلة علقت بين يديها.
- أحلام.. أنا آسف جداً على ما تفوّهت به عن غير قصد.
- اتركني من فضلك. ودفعت يدها نحوي تبعدني عنها، دون أن تنظر إلي.

بقيت واقفاً دقائق معدودة أحدّق في الأرض، وأحلام تقلب الصفحات..

- كما تريدين. قلت وغادرتُ غرفتها.

ترددتُ برهة قصيرة وأنا أنظر إلى صورتها الموضوعة على الطاولة.. قلبتها على وجهها، ومضيت أبدل ثيابي.

بعد دقائق عدت إلى غرفة الجلوس.. نظرتُ إلى رفوف الكتب مرات عديدة دون أن أقرر ماذا أقرأ.. وقع نظري على مسدس من عيار ١٤ بين الكتب.. تناولته وتأكدت من أقسامه وأنه جاهز لإطلاق النار.. قلبته بين يدي ثم أعدته إلى مكانه.. سحبتُ أول رواية وقعت بين يدي.. أمسكت بصورة أحلام وأعدتها إلى وضعها الصحيح.

تناولتُ الرواية وعدت إلى غرفة النوم.. كانت رواية "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف.. تمددتُ على السرير.. فتحت الكتاب، وبدأت أقرأ.. كانت معاناتي على أشدها وأنا أراجع ما بين الأسطر.. وطوال الليل بقيت صورة أحلام تملأ الصفحات، أرحل معها بين الكلمات، وكلانا يتعذب ويعذب الآخر.

***

١٠

الجامعة أصبحت حلماً بعيد المنال، ووقْف أطلاق النار غدا أمنية.

المقاتلون يجوبون شوارع بيروت العريضة كما يجوبون الأزقة الضيقة، الموت يتربص في كل الطرقات، وملاك الموت يخيم على المخيمات باسطاً جناحيه على الأبرياء، وأنا كئيب تراودني فكرة الهروب إلى الآخرة.

كنت أشعر أني كلما هممتُ الالتحاق بالمقاتلين، تتراءى لي جثة تتناثر، وأخرى تتلوى قرب جدار، أتقهقر من الأعماق، أدفن جثتي في جسد أحلام وأتراجع.

أعلن المذياع صباح اليوم التالي عن وقف لإطلاق النار.. ومع ذلك بدا الصباح حزيناً والناس ينهبون الشوارع جيئة وذهاباً.. هذا البلد غريب عجيب.. أين يختبئ هؤلاء الناس عند سماعهم أول طلقة**!**، وكيف يظهرون كيوم الحشر ساعة وقف إطلاق النار**!؟**.

راودتني فكرة النشر ثانية.. اصطحبت أحلام معي إلى إحدى دور النشر الجديدة.. وكم كانت دهشتي كبيرة حين قابلت فارس هناك.. كان يتربع على مقعد وثير خلف الطاولة.. في أعماقي تدافعت مئات الأسئلة.. قطع حبل أفكاري ووقف مرحباً..

قال إنه يعمل في هذه الدار منذ عدة أشهر، وسألني إذا كنت ما زلت أكتب!.. أخبرته أني ما جئت إلا لأنشر بعض ما أكتب.. ضحك وعدل من جلسته، ثم أبدى استعداده بحكم صداقة الأيام السابقة لمساعدتي بقدر استطاعته.

قدمت له مجموعة قصصية قصيرة.. قال وهو يضعها على الطاولة: "حتى هذه اللحظة لم أسألك عن هذه الجميلة التي ترافقك!".

حدثتُ نفسي، "اللعين كيف لم يعرفها!.. يتجاهل!؟، أم أنه يتناسى ما قاله عنها!"..

نظرتُ إليها.. كانت تتأمل لوحة معلقة على الجدار.. حصانان يركضان بشموخ.. قلت "إنها زوجتي".. نظر إلى وجهها ثانية.. ضرب بكفه على جبينه وقال:

- آه، كم أنا غبي!.. تذكرت.. ما الذي حدث لذاكرتي! نسيت أن أسألك ماذا فعلتَ مع الطبيب!.

تجاهلتُ سؤاله.. بدت أحلام قلقة.. سألته عن عمله في هذه الظروف!، فقال: "إنه يتزعم مجموعة من حملة السلاح".

- كيف حصل ذلك!..

أجاب ببرود: "إنهم حراس لدار النشر".. وأضاف بعد لحظة.. "بالمال أستطيع شراء أي شخص.. لم يعد هناك شيء في هذا العالم غير قابل للبيع.. ألا توافقني الرأي!".

- في هذا الزمن الملعون، كل شيء جائز..

قلت ووقفت مستأذناً بالانصراف.. لكنه أصر على جلوسي لأشرب شيئاً بارداً.. دق على جرس، وأضاف وهو ينظر إلى أحلام: "ماذا تشربين!.. قهوة أم بيبسي، أو عصير الليمون!".

لم تجب.. كانت مشدودة إلى اللوحة.. قلت: "هات قهوة لي وعصير لها"، تنبّهت وقالت: "لا، قهوة سادة من فضلك".

قلب أوراق المجموعة القصصية بين يديه.. نظر إليها نظرة سريعة.. ثم غادرت عيناه الصفحات، وأخذت تتفحص أحلام من جديد.. قال:

- سأبذل جهدي لنشرها.. لكن قبل ذلك أرجو أن تقبل دعوتي لتناول العشاء بمناسبة لقائنا ثانية.

اعتذرت، ووعدته بموعد آخر، وخلال احتساء القهوة أدار فارس دفة الحديث مع أحلام، وبدأ يتجاهلني، شعرتُ أنها مرتاحة لحديثة.. كانت كلماتي تذوب ولا تُسمع.. شيء ما بدأ يحترق في أعماقي.. لاحظت أنهما يديران الحديث بهمس لا أكاد أسمعه.. شعرت نحوهما بقرف واشمئزاز، وعلق بذهني فكرة أنهما من طينة واحدة.. الخيانة كانت تطفح من عينيها وعينيه.. وقفتُ فجأة، ولا أدري كيف صفعتها وغادرت المكان.

في الطريق وأنا أستعيد بذاكرتي ما حدث.. سألت نفسي إذا كنت حقاً متأثراً من ذلك!، وهل ذلك بسبب الغيرة، أم أنها فعلاً

تدبر شيئاً من وراء ظهري مع فارس!.. أما السؤال الذي طرح نفسه وملأ جوارحي، "هل حقاً أستطيع أبعادها عن حياتي؟!".

في البيت أشعلتُ سيجارة، وجلست أتابع برنامج تلفزيوني..

بعد دقائق حضرتْ.. توقفت قرب الباب تنظر إليّ.. كانت خائفة.. وبصوت ينضح بالألم قالت: "لماذا فعلتَ ذلك!؟"..

لم أجب.. أضافت: "لماذا لا تقل شيئاً؟".

قلت وثورة جامحة تجتاح كياني: "ماذا أقول!".

- لماذا صفعتني أمام فارس وتخليت عني!؟

أجبت باستهزاء: "ألا تعرفين حقاً!"..

قالت وهى تبكى بحرقة: "إنه صديقك، وأحببتُ أن ينشر لك شيئاً".

- هراء.. كنتما تتهامسان وكأنكما عاشقان.

- لا تسيء الظن بي للمرة الثانية.. كنت فقط أحاول إقناعه.

استسلمت لثورتي.. شعرتُ أنها تغيظني باعترافها.. قلت:

- وتقومين بدور امرأة ساقطة من أجل أن ينشر لي قصة!.

اندفعت فجأة عند قدميّ.. ركعت.. بكت بحرارة وقالت:

- آسفة.. آسفة، فعلت ذلك من أجلك.. أنت لم تر نفسك.. شعرتُ أنه يحاول إذلالك.

لم يخطر ببالي ما قالته عني.. شعرتُ بصدمة عنيفة تهزني.. لامس وجهها حذائي وهى تبكي بحرارة: "أرجوك سامحني.. لن

أتـدخل فـي شـؤونك بعـد اليـوم، سـامحني، فأنـا أحبـك ولا أريـد سواك"..

أحببتها أيضاً.. سامحتها لأستر ما بي من عيوب.. لكن ما لديّ من مال نفد، ولـم أعد أملك إلا القليـل.. أعلنـت إفلاسـي ماليـاً كمـا أعلنـت بـالأمس القريـب عـن إفلاسـي جنسـياً.. الجامعـة أغلقـت أبوابها إلى شعار أخر، وشـعار المـوت لـم يتـرك لأحـد أن يختـار ويقـرر.. الكـل يحمـل السـلاح، إن لـم يكـن للقضـاء علـى الثـورة.. فليكن للدفاع عن حدود المخيم الممتدة إلى حدود الوطن.. أو ليكن للسطو والنهب كما فعل فارس وفتح داراً للنشر.

المخيمـات تعـيش حالـة غليـان دائمـة، والهتافـات المبحوحـة المتقطعة تنـادي بوقف القتـال.. الثـورة تتـأجج.. والأخبـار تتـوارد عن سقوط مخيم قرب الحدود الجنوبية بأيدي العملاء، مما دفعنـي لحمـل السـلاح ثانيـة، فسقوط أحـد مخيمـات اللاجئين فـي نظـري يعني نهاية الثورة والوطن.. يعني نهاية العالم.

أحـلام لـم تعـد حريصـة علـى حيـاتي، ولـم تعـد تتمسـك بـي كالسابق.. قالت لي ذات مساء:

- صحيح أنا أحبك، لكن هذا لا يعني أن أتنازل عن الوطن من أجلك.. الوطن أهم وأغلى..

لـم أفهـم تحولهـا المفـاجئ، لكنـي شـعرت أنهـا تـدفعني لحمـل السلاح والموت، وأضافت أنها مستعدة أيضاً لحمل السلاح.. قلت

باستهزاء في قرارة نفسي: "أي امرأة هذه التي لا تجيد إلا النوم والحب!".

فجأة قامت من أمامي، اقتربت من سلاحي الموضوع قرب الجدار وقالت: "عيبك يا شريف أنك لم تعرفني لهذا الوقت".. وتناولت الكلاشنكوف بسرعة..

قلت لها: "اتركيه، فالسلاح بيد الجاهل يصبح خطراً عليه وعلى غيره".

لم ترد، نظرت إليّ، سحبت أقسام الكلاشن، صوبت نحوي، ثم حولت اتجاهه إلى النافذة، وفجأة أطلقت صلية من الرصاص بسرعة جنونية.

ارتميت على الأرض، صرختُ عليها، صرخ طفل في بيت مجاور، تعالت الأصوات، تراكض رجال ونساء أمام الباب مذعورين.. كانت تصرخ كالمجنونة.. ألقت بالبندقية على الأرض.. زجاج النافذة تحطم وتساقط.. تعالت أصوات الرشاشات في الحي وغطت على صلية الرشاش، لكن أحداً لم يسأل عن الذي حدث داخل البيت!.

بعد دقائق عادت لهدوئها.. قالت إنها لا تدري ماذا فعلت.. وتشعر أنها يائسة من الحياة.. وأضافت: "لم يعد لدينا ما نأكله"، وصرخت: "متى ينبلج الفجر، ونعود للوطن؟!".

قلت: "أما زلتِ تحلمين!، لقد حرّم الأعداء علينا الأحلام يا أحلام".. ضحكتُ عالياً لهذه الجملة.. أضفت: "نحن محاصرون، البحر غرباً، وجنود الاحتلال في الجنوب، والكتائب في الشرق والشمال، في الأحلام نحلم بالعودة إلى الوطن يا أحلام".

***

١١

كابوس الموت أخذ منذ الفجر يترنح على أطراف مخيم صبرا وشاتيلا، ويلقي بثقله على أرواح الشيوخ والأطفال والنساء، تناثرت الجثث وتبعثرت في الأزقة والشوارع بفعل القصف العنيف القادم من الشرق، ووقف إطلاق النار بات على كف عفريت.

رجال المقاومة ما زالوا صامدين، وتكبيرات المؤذنين تشق السماء، تترافق بتناغم مع أجراس الكنائس، تعلن عن موت الأبرياء تحت الأنقاض.

الدبابات حاصرت المقاتلين واقتحمت حدود المخيم، تراجع المدافعون إلى خط دفاعي جديد، معلنين عن صمودهم وتحدي القوات المهاجمة.. اندفعت الجرافات تزيل الحواجز والمتاريس وبيوت الصفيح، تمسح بقايا الحياة التي كانت معالمها على أطراف المخيم.. المجزرة رهيبة وفظيعة.. عشرات المدافعين تساقطوا على حدود المخيم، لم نستطع أن نلم أشلاءهم ونحن نتراجع إلى خط الدفاع الثاني.. العيارات النارية تلاحقنا، تلتهم البيوت وتحرق الجثث، وكأن الأعداء مصممون على دفننا أحياء بين الأنقاض.

هذا اليوم خبز أبناء المخيمات أقراص الخبز المعجون بدماء الثوار على حريق بيت ناره متأججة من عظام أصحابه.. وفي عيون الأطفال شاهدوا الموت يلاحقهم مع كل طلقة.

القذائف بعيدة المدى تتهاوى وتقذف المخيم بحمم الموت، فجّر المدافعون أنفسهم في الكمائن المتقدمة، زرعوا الألغام في أجسادهم أمام تقدم العربات المصفحة.. توقف الأعداء على مرمى البصر.. كانت لحظات الموت رهيبة، وأنا أرقب أحدهم في منظار بندقيتي في الظلام.. أخي صالح كان هناك، ومحمود الغزاوي كان بين الجثث المتساقطة، والقتلة ما زالوا يطلقون النار ويتقدمون نحو منظار بندقيتي.. أحدهم سقط ولم يتحرك.. ران صمت مخيف على ذاكرتي.. أسندت ظهري إلى جدار، وتمنيت أن أحمل قلماً بدل البندقية لأكتب عن الموت والحرب.. في الحرب أجمل القصص وأتعسها.. أفكاري بدأت تنهار وتتشتت، والمهاجمون أخذوا في التراجع والتقهقر أمام صمود المدافعين.. في قرارة نفسي تساءلت، "لماذا هذه الهجمة الشرسة على هذا الشعب، ولماذا تتصاعد هذا الوقت بالذات، بينما يقترب الصراع من الحسم!، ألا يعرفون أنه لا يمكن أن تقتصر نتائج هذه الحرب على هذا الشعب وحده، وأنه لا بد وأن ينعكس تأثيرها على المنطقة كلها!".

كنت أحدث نفسي وأقلّب الوضع الراهن في ذاكرتي، فجأة انقلب المتراس رأساً على عقب بعد أن سقطت عليه قذيفة بعيدة المدى.. وجدت نفسي أطير في الهواء وارتطم في كيس رملي يبعد عن مكاني أمتاراً عدة..

أبحرت زخات من الرصاص، وتوقفت في عباب الجماجم.. العالم أصبح صغيراً وجحيماً تلك الليلة، الجدران ترنحت وأصبحت أرصفة وممرات، الأحياء الهادئة أصبحت جبهات مفتوحة ومتداخلة لقتال ملعون، والفجر بدا بعيداً جداً.

كنت أطلق النار وأركض بكل الاتجاهات، أتقدم نحو الموت الأسود، والطلقات تلاحقني.. كنت أعرف أني لن أموت بسهولة وبيدي طلقة واحدة، لكن الرشاش أصبح قطعة حديد تافهة حين فرغ من الذخيرة، وأنا أصبحت عاجزاً تماماً عن الحركة.. كانت الدنيا تظلم تدريجياً في عينيّ، وزخات الرصاص تقترب وتبتعد وتهدأ تدريجياً.. فجأة وجدت نفسي في خندق قريب تحت كومة من التراب أثر سقوط قذيفة، والماضي يتربع في ذاكرتي..

حين قدمت إلى بيروت لألتحق بالجامعة، لم أكن أتصور أن كل هذا سيحدث معي.. كان أملي كبيراً أن أحصل على الشهادة الجامعية، وأعود إلى الوطن.. والدي كان مدرساً.. لكنهم طردوه من الخدمة، بعد أن زجوه في السجن عشرة أعوام بتهمة تحريض الطلاب ومساعدة رجال المقاومة، والاحتفاظ بسلاح غير مرخص.. والدتي توفيت بعد شهر من إصابتها في ساقها يوم

اعتقال أبي.. عمتي هي التي قامت على خدمتنا حتى أطلقوا سراح أبي.. قادونا معه إلى حدود الوطن.. عند حافة النهر القوا بنا، وأمرونا أن نسلك الطريق إلى الشرق.. كانت الحياة قاسية، والدي لم يتخلّ عن الدفاع عن مبادئه.. التحق بصفوف المقاتلين.. كان يدفعنا دفعاً للتعليم ونيل الشهادة الجامعية.. يقول بأننا لن نستطيع الصمود وإعادة شبر من الأرض إذا تخلينا عن العلم.. الجهل سبب كل المصائب التي حلت بأمتنا.. طلب مني أن أكون محامياً، لكن في أعماقي كنت أتوق لكتابة القصص.. وحين التحقت بالجامعة، اكتشفت أني لا أرضاً قطعت، ولا ظهراً أبقيت.

بعد أكثر من عامين من وصولي بيروت، التحقتُ بالمقاتلين بعد أن تدربت على السلاح.. ذات يوم جاءني أخي صالح على غير موعد ملتحقاً بالتعليم الجامعي.. اعتقدت أن وجوده سيدفعنا معاً إلى النجاح والمستقبل المشرق.. لكن الأخبار وصلتنا بعد فترة تنبئ عن استشهاد والدي في عملية داخل الأرض المحتلة.. انقطعت بنا السبل في أتون الحرب الأهلية.. لم تعد مصاريف الجامعة في قدرتنا، كما لم يعد لنا مكان في هذا العالم إلا أن نخوض غمار هذه الحرب اللعينة.. أخي أصبح نزقاً بعد سماعة نبأ استشهاد والدي.. لم يعد يؤمن بالجامعة ولا بالعلم الذي زرعه والدي في داخله طوال فترة حياته.. كنت أؤمن بالثورة، وكان أول من قتلت "الغزاوي محمود"، صديقي وصديق أخي.. لا أحد يعلم مقدار ألمي وأنا أتعذب مع أخي وهو يبكي رفيقه الذي افتقده،

لم أقل لـه شيئاً عن الحادثـة حتـى لا أزيـد إيلامـه وتعذيبـه.. كـان السر يمزقني من الأعماق، وأقسمت أن أنتقم لـه من نفسـي، لكن فقدان أخي كان أكبر مـن أن أحتمـل.. آه، كم عانيت وأعـاني مـن أوجـاع عميقـة وأنـا أتـذكر أخـي الـذي كـان والـدي دومـاً يلقبـه بالصالح، تيمناً بمستقبله، وما كان يحفظه من القرآن.

أخي كان رمزاً للجندي المجهول.. عاش غريباً، ومات مجهول الهوية من أجل الوطن، ثم دفن في أرض غريبة.. لا أحد يعرف ما أقاسيه من آلام في أعمـاقي.. الجامعـة باتـت حلمـاً بعيد المنـال، وأنا يائس وبحاجة إلى صديق أدفن في صدره كل آهاتي.

أحلام كانت أول من صادفتها من النساء فـي حيـاتي، لكننـي لم أكن مؤهلاً للزواج من امرأة فرّطـت بنفسـها مـن أول لقـاء.. كنـت علـى موعـد مـع العودة إلـى ارض الـوطن، لألتقـي بوالـدي حـاملاً معي شهادتي الجامعية.. لكن الحلم تبدد ولم يعد أبي في انتظاري، كمـا لـم يعـد لعـودتي فائـدة بعـد أن فقـدت أخـي.. أقنعـت نفسـي بالغربـة، التحقـت برجـال المقاومـة وحملـت السـلاح، ثـم تعلقـت بأحلامي إلى أبعد الحدود.

حين آمنتُ بـالثورة، والتحقتُ بصفوف المقـاتلين، ضـعتُ مـن جديد، كما ضاع كل أمل لي في المستقبل.

كالأمواج المتلاطمة في بحر عاصف، كانت الأفكار تمخر فـي رأسـي.. استسلمت للأمر الواقـع، وشـعرت فـي قرارة نفسـي أنـي

أغسل أخطائي.. بل وأقنعت نفسي أن لعنة أحلام تطاردني إلى الأبد.

***

لم اعد أخاف الموت.. أصبحت أخاف الحياة في مدينة الفوضى والدمار والموت.. رهبة الموت استبدلت بشعور من الكراهية والحقد.. أصبح للدم صوت شلال في أعماقي.. الأشياء من حولي بدت تقترب وتبتعد، تختلط وتتفارق، تدور وتلف، الألوان بدت غامقة بلون قاتم، وفقدت الإحساس بكل شيء.

كنت مسحوقاً حتى العظم والنخاع، وأنا اهوي في بئر من الأوجاع بلا قرار، وبلا نهاية نحو القيعان المظلمة.. والفرسان مازالوا يتبارزون ويموتون من أجل متراس افتقدوه قبل لحظات، ثم عادوا إليه مهللين محتفلين بالنصر.

رائحة الدم كانت تفوح في الطرقات، والموت يقبع خلف الأبواب، ينتظر الرصاص الوافد ليدخل معه.. مات الحوار ونطق الرصاص.. حدود المخيمات صارت أبعد من حدود الوطن، وأحلام أصبحت حدوداً لوطنيتي.. أنا الصحراء وهي الغيوم، وموسيقى الموت الجنائزية تلاحقني عبر فوهات الرشاشات وأسطوانات المدافع.

أحلام كانت ملاذي الأخير، حلمي المبتور، ملاكي الذي أحببتُ كل عضو فيه بطريقة تقترب نوعاً ما من العبادة الصوفية.

حين عدت للبيت كانت أحلام نائمة، شاهدتها مستلقية على وجهها.. وسط الدموع المقهورة تعانقنا.. كانت مستعدة أن تفعل أي شيء من أجلي، بكت بحرقة طويلاً، وتحدثت كثيراً عن وحدتها والألم الذي قاسته أثناء غيابي، خاصة وأنها لا تعرف إذا كنت ميتاً أو على قيد الحياة.. لم أتحدث إليها.. كنت ألوذ بالصمت وأخنق الدمعات الحزينة في مقلتي.. دعتني للراحة والنوم، واستلقت بجانبي.. كنت تعباً ومحروقاً من الداخل، واكتشفت أن لا شيء يثيرني بعد الذي حدث معي.. بدت أحلام بجانبي مثل دمية، وأنا شجرة ميتة لا حياة فيها.

في الصباح انتابني شعور بالقلق، شعرتُ أنني عبد منقاد لأحلام رغم كل الآلام والجروح، وتمنيتُ أن تموت علاقتنا حتى لا أزيد في عذابها معي.. مع أحلام كنت ضعيفاً، وتمنيت الخلاص منها بقدر ما تمنيت رؤيتها وهي بعيدة عني.

تركتها مستلقية على السرير، وقمت إلى التلفاز، فتحته وبدأت أتسلى بالنظر إليه.. شعرت أن متعتي بمشاهدة التلفاز أعمق وأكثر إثارة من النظر إليها، وعرفتُ لأول مرة في حياتي أن مشاهدة التلفاز يجعل للحياة الزوجية استمرارية أطول، دون الاضطرار للكلام.

لاحظتُ أنها بدأت تختلس النظر إلى البرنامج التلفزيوني أيضاً، ثم راحت تتابع البرنامج معي.. فجأة انتزعتني من البرنامج وقالت: "بحبك يا شريف".

استسلمتُ لكلماتها، وقادتني بجانبها إلى السرير..

ألقيت بجسدي المثقل بهموم العمر جانبها وقلت:

- أشعر بالأسف من أجلك.

قالت بدلال: "أنا بحبك، دعنا نحاول من جديد".

شعرتُ أن أعضائي تذبل وتموت.. أضافت حين لم تجد مني قبولاً: "إذن قبلني فقط"..

قلت وأنا أقبلها من جبينها: "أشعر أن كل شيء حي في جسدي قد جف ومات".. قالت: "ليس هكذا، عانقني وكسّر ضلوعي مرة واحدة"، وطوقتني بذراعيها..

كنت أتمنى أن أسحق شفتيّ بشفتيها، لكنني تراجعتُ فجأة، شعرت أني أنكمش، ولا رغبة لي بالجماع، مقهور، مفتّت من الداخل ومشلول.. الناس في بيوتهم يستمتعون ويرقصون، وفي الخارج يتقاتلون، وأنا هنا مقيد، ألهث، وأحلام تتربع أمامي وفي مؤخرة رأسي.. تقودني إلى الجنون.. أحلام كانت حلمي الناقص منذ الليلة الأولى.. الخيانة كانت واضحة في عينيها.. الخيانة كانت واضحة أيضاً في عيني الخادمة التي جاءتني لأول مرة تنظف البيت وتغسل ملابسي.. كانت بشعة المظهر، تراءت لي مثل ضفدع ببطن ممتلئ وساقين نحيلتين، هربتُ منها، ثم عدت وطردتها من البيت.. كلهن خائنات.

أحلام تفنّنت في طرق الإثارة.. كانت الأجمل في حياتي.. لكنها لم تصل لنتيجة معي تلك الليلة.. أشعر أني أحبها كدمية لا حياة فيها، وحين تدب فيها الحياة أهرب منها، أتقلص وأتراجع.

وحدتها باتت تقلقني، أصبحت عالماً قاتم الألوان في حياتي.. أحجية لا أعرف عنها شيئاً.. لم تتحدث إلا القليل عن ماضيها وحياتها، مخلوق غريب في متاهة عالم غريب.. بحثت عن الضوضاء والإثارة مع غيرها، وحين كانت تقتحم عالمي في لحظة إثارة، أعود لعجزي، أتقوقع، أنكمش وأتراجع.. رغبتي بها أصبحت أخف، لكني لم أستطع مصارحتها بذلك.. كنت خائفاً أن أفقدها ثانية، أشعر أنها قطعة من أملاكي الخاصة.. جوهرة ثمينة أو ماسة في خزانة حديدية، لا يمكن التفريط بها كما لا يمكن الاستغناء عنها.

لحظات القتال والهدوء يسيران بخطين متوازيين.. الناس تعوّدوا على هذه الحياة، وباتت مألوفة لديهم.. لم يعد أحد يخاف الموت أو يهرب منه، وكما القتال والهدوء كنت وأحلام.

***

١٢

صباح احد الأيام، وأثناء فترة وقف إطلاق النار، طلبتُ من أحلام مرافقتي إلى السوق لشراء بعض الأغراض، في البداية رفضت، وعارضت، لكنها وافقت في النهاية بناء على رغبتي وإلحاحي.

ارتدت أفخر الثياب.. ذلك الثوب الأحمر الغامق اللون الذي يبرز مفاتنها وأنوثتها، ويشف عن ساقيها فوق الركبة.. قلت لها: "سترتدين هذا الفستان!".. قالت وهي تحاول إصلاحه فوق جسدها أمام المرآة: "ما به، ألا يعجبك!".

- أليس لديك فستان غيره؟.
- ما خطبه!، إنه هدية من أعز صديقاتي.

تجاهلت الأمر حتى لا أثير مشكلة وقلت: "لا شيء، لا شيء".

أغرقتني بنظراتها، ثم قالت: "أنت تكذب عليّ، ما الذي لا يعجبك بهذا الفستان!؟".

شعرتُ أنها تغيظني.. قلت: "تبدين عارية تماماً.. هذا كل شيء".

سألت بدلال: "هل تغار عليّ!؟".

- لا، لا.. ارتدي ثوب الحمام إذا كان يعجبك.. لا أبالي..

نظرت إلـيّ بغضـب.. هربـتُ مـن نظراتهـا، تجاهلتهـا.. بـدت وكأنهـا تسـتعد لعـراك بالأيـدي.. فتحـتُ بـاب الشـقة وخرجـت.. تبعتني.. وطوال الطريق لم نتحدث.

في الطريق عرجتُ على معرض لبيع الكتب.. فوجئت بفارس من جديد.. لا أدري كيف يدفعه القدر فـي طريقـي.. أوقفنـي وراح يتحدث معي عن دور النشر وقلـة بيـع الكتـب.. ثم دعـاني لشـرب فنجان قهوة في استراحة المعرض..

- لـم يعـد النشـر كمـا كـان سـابقاً، "قـال فـارس ونحـن نحتسـي القهوة"، إنـه يكلـف الكثيـر، مـا يهـم الآن لـيس مـا تكتبـه، بـل مقدار المبيعات.. لا أحد ينشر إلا إذا كان الكاتب مشهوراً..

قاطعته: "يبدو أني لن أستطيع نشر سطر واحد مما كتبت".

أجـاب بسـرعة: "طبعـاً لا تسـتطيع إلا إذا كنـت مشـهوراً.. أمـا على حسابك الخاص..".

قاطعتـه ثانيـة: "هـذا لا يمكـن أبـداً، فأنـا لا أملـك المـال كمـا تعرف".

أشـعلتُ سـيجارة.. نظـر فـارس إلـى أحـلام.. تجاهلتـه أحـلام تماماً.. لكني شعرتُ أنه يفترسها بنظراته.. كانت منهمكـة بـالنظر إلى صورة في صحيفة بين يديها.. قال:

- لمـاذا لا تـدخل معترك الحيـاة وتعمـل، الأدب لـم يعـد لـه فائـدة هذه الأيام.. أما إذا كنت بحاجة إلى نقود فأنا على استعداد أن

أسـاعدك.. السـيدة أحـلام باسـتطاعتها أن تكـون سـكرتيرة ممتازة..

قاطعته هذه المرة بغضب واضح: "أنا لا أسمح لك"..

- اسألها.. خذ رأيها.. أنا واثق أنها ستحب العمل معي. قال

لا أدري ثانية كيف حصلت الأمور وتطورت بعد ذلك.. تمنيت أن أقتله.. وقبل ذلك وددت لو أقتلع عينيه وأقطع لسانه.. وغادرت المعرض مع أحلام دون أن نتجول في أجنحته.. وجدت نفسي في البيت ثانية، قلت: "كان يجب أن تتدخلي في الموقف".

قالـت وثـورة الغضـب تجتـاح كيانهـا هـي الأخـرى: "انتهـت الأخلاق فعلاً.. لم يعد للناس شرف.. أنـا أفهم قصدك.. إذا أردت أن تنشر قصصك عن طريقي، أنا مستعدة".

تدفق الدم في عروقي فجأة وقلت:

- مـاذا تقـولين يـا سـاقطة.. أنـا لـم أقصـد موضـوع النشـر.. أنـا قصدت موضوع العمل لتوقيفه عند حده.

تراجعتْ إلـى الخلـف.. تأسـفت وقالـت أنهـا فهمـت الموضـوع خطأً.. ومع ذلك شعرتُ أنها تمثل دور الفشـل فـي حيـاتي، ولا بـد أن أطردها من حياتي.. كنت غاضباً، لا أعرف من أين أبدأ، ولا كيف أنتهي.. حاولت بكل طاقاتي كبح جماح غضبي.. قلت: "كأن مشكلتي بدأت عندما تعثّرت مع دور النشر!".

قالت وقد اطمأنت أن ثورتي هدأت: "لا أستطيع أن أراك تُذل هكذا، وتفلس من كل الجهات".

شعرت وكأنها تذكّرني بعجزي أيضاً.. قلت: "على أية حال لا تتدخلي في شؤوني، فلست الوحيدة في هذه المدينة".

تقدمت نحوي.. وبلهجة حزينة قالت: "هل هذا شعورك الحقيقي نحوي؟".

- هذا بالضبط ما أشعر به.

زاغت نظراتها.. أغمضت عينيها وقالت: "في هذه الحال، الأفضل أن أذهب بكرامتي"..

قلت بإصرار: "تفكير جيد.. افعلي ذلك".

بعصبية وحركة غاضبة اتجهت إلى غرفة النوم.. تناولت حقيبة.. ألقتها على السرير.. جمعت ملابسها داخلها بغير ترتيب.. أغلقتها بقوة.. حملتها بيدها واتجهت نحو الباب.. سمعت الباب يُفتح.. توقفت لحظة وقالت: "أنا راحلة الآن".

كنت أتصفح كتاب بين يدي، وعيني تختلس النظرات إليها، محاولاً بكل جهدي أن لا أضعف أمامها.. أضافت: "هل أنت حزين أني ذاهبة!".

لم أجب، أضافت: "أنت حزين بالتأكيد".

قلت بغضب وموجة من الكبرياء تجتاحني: "أنا حزين إذا تراجعتِ عن موقفك وغيّرتِ رأيك".

تراجعت إلى الخلف.. مرت لحظة صمت وأنا أحاول السيطرة على نفسي وإخفاء ملامح وجهي.. وضعتْ حقيبتها عند الباب.. سمعت خطواتها تتقدم نحوي.. وقفت قربي.. ألقت مفتاح الشقة على الطاولة أمامي وقالت: "بحبك.. بحبك يا شريف"..

لم يتحرك في داخلي ساكن.. ركعتْ عند قدمي.. أمسكت ساقي.. بكت بحرارة.. أضافت: "بحبك يا شريف.. بحبك".

لم استطع مقاومة دموعها.. رفعتُ رأسها بين يدي.. تحسستُ وجهها.. سرت قشعريرة في جسدي.. شعرتُ أن حبها موجة بحر عاصف تلطمني وتسحقني حتى العظم.. ولأول مرة أشعر بخوف من هذا الحب.. لكني جمعت أعصابي في بوتقة، ولجمت عواطفي حتى لا أنهار، قلت:

- حسناً.. أعيدي حقيبتك، وأعدّي لنا فنجانين من القهوة.

أحلام كانت مقطوعة من شجرة يابسة مثلي.. لم يعد لها صديقات تلجأ إليهن.. فقدت كل معارفها بسببي.. وكذلك أنا.. وللحظة شعرتُ أننا كقطعتي مغناطيس نتجاذب حتى لا نستطيع الفراق.. أو نتنافر إلى أبعد الحدود، حتى لا يمكننا اللقاء.

تساءلت في قرارة نفسي: "أين ستذهب لو غادرت البيت!.. ليس لها أقارب.. غريبة في مدينة كبيرة".

كنخلتين وحيدتين في صحراء ليس لها حدود، بدت حياتي مع أحلام.

***

ليومين متتاليين لم نغادر البيت، ولم نتحدث أيضاً..

في المساء أحضرت العشاء.. جلست أتناوله بصمت، وجلست تحدق بي.. كان هناك آلاف الكلمات التي تتدفق، وتختنق قبل أن تصل إلى الشفاه.

حوّلت أحلام الصمت إلى حركة فجائية.. تناولت زجاجة الماء البلاستيكية وشربت منها مباشرة.. قلت: "لماذا لا تشربين من الكوب!".

بإيجاز مقتضب أجابت: "ما الفارق.. إنه نفس الماء والمذاق".

قلت بتحد: "لا، هناك فرق كبير.. إنه نوع من الأدب"..

صمتت لحظة.. بانت علامات من الغضب على وجهها.. قالت: "هل هذا يعني أني غير مؤدبة!".

سارعتُ بوقف جماح غضبها.. قلت: "أنا لم أقل ذلك.. أنت قلتها بنفسك، لكني أقصد أدب المائدة".

زمّت شفتيها وقالت بتجاهل واضح: "لا أفهم ماذا تعني!.. هل هناك فرق بين أدب المائدة وأدب الكتابة مثلاً!".

للمرة الألف شعرتُ أنها تستفزني.. ترد الصاع صاعين.. انفجرتُ كقنبلة موقوتة: "أنت جاهلة.. لا تفهمين ماذا أقول أو ماذا أعني!".

تحركت بعصبية وقالت بتعجب: "أنـا لا افهم!".. وبعد لحظـة صمت، أضافت: "لقد تركت الأدب لك".

لـم اجـب.. لـذت بالصـمت حتـى لا تتفـاقم الأمـور.. لكنهـا لـم تصمت.. أخذت زمام المبادرة والتحدي.. أضافت عندما لم تسمع جواباً: "لو كنت متأدباً أو أديباً أكثر مني، لنشر لك أحد الناشـرين قصصك!".

شعرتُ أنها لم تكتف بالتحدي بل أتبعته بالإهانة أيضـاً.. كـادت أن تلفظ اسم فـارس أيضـاً.. شـعرتُ أنهـا تقصده بـالذات مـن بـين الناشرين، حدثت نفسي.. لكنى لجمت لساني وقمت اغسـل يـدي.. وحين عدت كانت لا تـزال جالسـة فـي مكانهـا ولـم تتحـرك.. قلـت وأنا أشعل سيجارة:

- أنتِ جاهلة.. لكن هذا لا يهم طالمـا وهـو يصـدر مـن نادلـة أو راقصة مثلك.
- أنا لست نادلة ولا راقصة.. أنا زوجتك ولم أرقص يوماً لأحد غيرك.

شعرت بالسخط نحوهـا.. لقد تمـردت القطـة الهادئـة وأصـبحت نمـرة بمخالـب وأنيـاب.. قلـت: "آه زوجتـي!.. لـولاي لكنـت الآن تشـحذين البقشـيش مـن الزبـائن.. آه لـو لـم آخـذك مـن المطعـم اللعـين".. ورميـت بعقـب السـيجارة علـى الأرض ودسـت عليهـا بقدمي وأنا اشتمها.

بحركة جنونية، وفي لحظة مفاجئة انفجرت قنبلتها الموقوتة هي الأخرى.. تناولت زجاجة الماء البلاستيكية وقذفت بها بكل قوتها نحوي.. وقامت تحاول الهرب إلى الداخل.

لا أدري كيف أمسكتُ بها من شعرها، ضربتها، لكمتها، سحبتها من شعرها وألقيت بها على الأرض، سقطت دون مقاومة.. بلا حركة، ودون صراخ.. أفزعني منظرها على الأرض.. لم تقم.. ركلتها لتقوم.. هززتها.. لم تتحرك أيضاً.. تقدمت منها.. أبعدتُ شعرها عن وجهها.. رفعتُ رأسها بين يدي.. شعرتُ بشيء دافئ بين أصابعي.. كانت نقاط من الدم قد تسرّبت على أرضية الغرفة من مؤخرة رأسها.. شعرت بفزع رهيب.. صرخت: "أحلام، أحلام قومي.. لا يمكن أن تتركيني وحدي.. هيا قولي شيئاً"..

كمن فقد عقلة في نوبة جنونية كنت أتخبط..

جسستُ نبضها، ألقيت برأسي على صدرها أتحسس دقات قلبها، كانت تتنفس ببطء وصعوبة.. أسرعتُ إلى النافذة، شاهدت بعض المارة يتراكضون.. أصوات الطلقات النارية لم تنقطع، لكني ما عدت أسمعها، أغلقتُ النافذة من جديد، هرولتُ نحو الباب أطلب المساعدة.. لم أجد أحداً.. أبواب الشقق مغلقة.. عدت إليها ثانية، شاهدتُ يدها تتحرك.. أسرعت أرفع رأسها بين يدي، تمتمتْ: "آه، أنا أتألم".. قلت: "آسف، سأطلب لك طبيباً"..

بين الألم والدموع شدتني نحوها.. همستْ: "لا، أستطع أن أتحمل أي شيء من أجلك.. عانقني فقط".

بكيت على صدرها، اعتذرت ثانية وقلت: "لا تتركيني أرجوك، أنا بحبك".

نهضت أحلام بين يديّ بصعوبة، غسلت وجهها، ساعدتها على تضميد جرحها.. قالت وهي تُسرّح شعرها لتخفي آثار الجرح: "أنا متعبة، أشعر برغبة شديدة للنوم".

كاد الفرح يقفز من عينيها وأنا أستلقي بجانبها على السرير، كشريط سينمائي بدت حياتي أمامي تلك اللحظة، ولا أدري لِمَ اجتاح ذاكرتي الجانب المظلم منها، وعلى الفشل الذي يلاحقني كظلي.. قلت: "كفى يا أحلام، لنتوقف عن خداع أنفسنا".

رفعت رأسها وحملقت في وجهي ثم قالت: "أنا لا أفهم"..

- ما من شيء عذب يدوم.. كان حبنا حلواً، لكنه أصبح علقماً.. أليس كذلك!.

بدأتْ بالبكاء.. شعرتُ أنها بدأتْ تتألم أيضاً.. أضفت: "كنت أحب لك السعادة دوماً.. لكني أفلست من كل الجهات.. ثم أصبحت قاتلاً ومجرماً.. فماذا بقي لك مني!..

قاطعتني وهي تجهش بحرقة: "لكني أحبك وأريدك كما أنت.. أردت دائماً أن أنجب لك طفلاً، وأعطيك بقية حياتي".

- لا أريد بقية حياتِك.. أريد بقية حياتي أنا..

- ماذا فعلت لك حتى تعاملني مثل هذه المعاملة!؟.

لم أدر ماذا أقول لها.. أضافت وهي تبكي وتتألم: "أنت تقتلني يا شريف، تدفعني إلى الموت.. قل لي ماذا فعلت لك!".

- لم تفعلي شيئاً.. أنت موجودة في حياتي كاللعنة، هذا كل شيء..

وقفت فجأة، مسحت دموعها، تراجعت إلى الخلف، نظرت إليّ بعيون حمراء ملتهبة وقالت: "أنا لم أعد أفهمك، أنت إنسان متقلب العواطف، مجنون". وولجت غرفة النوم وأغلقت عليها الباب.

في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي صحوتُ من النوم، شاهدت باب غرفتها مفتوحاً، لكنها لم تكن في الداخل.. بحثت عنها في أرجاء البيت.. لم أجدها.. كانت قد أخذت بعض حاجياتها ورحلت.

***

كنت خارجاً من الحمام عندما دق جرس الهاتف.. صوتها كان على الجانب الآخر..

- شريف لا أستطيع الحياة بدونك.. أنا بحبك.

حين غادرتني أحلام قبل أكثر من شهر، شعرتُ أني كسرتُ شرنقتي.. نسيم الحرية كان ألذ وأحلى.. المستقبل بدأ مليئاً

بالوعود.. الفرح بدأ يغمر حياتي، وأنا أقنع نفسي أني كنت مقيداً بحبها.. أحلام كانت لعنة في حياتي انتصرت عليها.. قلت لها:

- أهذا أنتِ.. أخشى أن أقول عليك البقاء لوحدك.

قالت بإصرار: "لن أفعل".

قلت محاولاً إقناعها: "لقد مررنا بتجارب عدة.. وافترقنا هذه المرة لنرتاح قليلاً"..

قاطعتني: "لا مكان ولا صديقات لي، أنا أعيش في بيت صديقة قديمة".

- لا بأس، أخرجي إلى الحياة، وابحثي عن عمل.. بعدها ستكونين ممتنة لي، لأني دفعتك إلى الخطوة الأولى لتتعرفي على الحياة.
- أنا لا أفهم ماذا تعني بكلامك هذا!..
- حاولي الانطلاق في الحياة ثانية وثالثة.

صرخت: "ماذا تقول!؟".

لا أدري من أين جاءتني الجرأة وأنا أتكلم.. ربما لأنها لم تكن أمام ناظري، وربما لأني كنت مصراً على قلع جذورها من حياتي.. قلت بإصرار: "أتعرفين أني بدونك أتنفس الحرية الآن"..

أقفلت الخط في وجهي، ولم أعد اسمع عنها شيئاً.. ليلتها تساءلت إذا كانت أحلام تختبر مشاعري وهي بعيدة عني، أم أنها تتلاعب بعواطفي!.

***

١٣

عند فجر إحدى الليالي الطويلة، عدت للبيت بعد نوبة حراسة قاسية.. شاهدتها ممدّدة قرب الباب.. فاجأتني بوجودها، توقفتُ لحظة، حاولت تخطيها لأدخل البيت دون أن تشعر بوجودي، لكن قدمي أصابتها، أفاقت مذعورة، قالت وهي تنظر إليّ: "شريف.. كنت بانتظارك".

كنت في حالة إرهاق شديدة، قلت: "أرى ذلك.. لكني أتساءل عن السبب؟".

أجابت باقتضاب: "أنت تعرف السبب".

ثورة جامحة انتابت مشاعري قلت: "أعرف أني تعب، وأريد النوم"، وتقدمتُ نحو الباب أفتحه.. تمسكت بساقي وقالت: "أريد أن أقول لك شيئاً"..

قلت وأنا أحاول التخلص منها: "لا أريد أن أسمع شيئاً".

بدأت بالبكاء والنحيب، قالت:أرجوك"..

انطلقت زخة رصاص فجأة من المبنى المجاور، سقطت قذيفة في الجانب الآخر من الحي، فُتح باب جانبي، وظهرت امرأة تسترق النظر لما يدور عند الباب.. عوى كلب عند أسفل الدرج.. دخلت المرأة البيت وصفقت الباب خلفها.. دلفتُ إلى الداخل ولحقت بي أحلام، وأنا أعرف أني أدخل سجاني إلى حظيرتي.

شعرها بدا لي أقصر من الماضي، رغم انسيابه على الكتفين بشكل متموج.. مسحتُ وجهي بالماء.. تناولت كأساً من الشراب، وتنقلت في البيت وهي تلاحقني بنظراتها دون أن تنطق بحرف.

في الصالة توقفت خلفي مباشرة، عرّتني بنظراتها، قلت: "هل تريدين كأساً!".. لم تجب.. أشعلتُ سيجارة ونظرت إليها، قالت: "أراك عدت للشراب من جديد!".. تجاهلت ملاحظتها.. أضافت: "صدّق ما قلته لك على الهاتف".. تغيّرت نبرات صوتها.. بدت وكأنها في قمة أحزانها، أضافت: "لا أستطيع العيش بدونك"..

شعرتُ بضياع وتيه لا مثيل لهما.. قلت: "هذا لا يهمني بشيء".

ركعت عند قدمي، قالت بتوسل بأنها على استعداد أن تعيش معي تحت أي ظرف على أن لا أطردها من البيت.. تأسفتْ كثيراً، وانتحبت كثيراً.. سرت قشعريرة في جسدي، ولا أدري كيف ركلتها بعنف بعيداً عني.. تكومتْ أمامي، تكوّرت وتلوّت كأفعى، تشبثت بحذائي.. ضمت ساقي إلى صدرها.. بكت بحرقة وقالت: "لا تقل أنك لا تحبني، أرجوك"..

سحبتُ ساقي من بين ذراعيها، تمسكت به أكثر.. شعرت أنها تريد تقبيله.. سحبته بقوة، سقط وجهها على الأرض مثل مزهرية ارتطمت بصخرة.. أحلامها تهشمت.. تبخرت فجأة، أضافت بصوت مكسور من حوافه: "أنا بحبك".

أحلام كانت لعنة، معها فقدت كل حواسي.. مشهداً واحداً في ذاكرتي لم ولن أنساه.. كان جرس الهاتف يدق.. كنت في الحمام والصابون يملأ وجهي وعينيّ، وأنا اسمعها تقول: "كلا، لا أستطيع القدوم الآن، سآتيكِ في وقت آخر".. دائماً كنت أشعر بالخيانة تنضح منها.. كانت تتكلم وكأنها تتحدث مع امرأة أخرى.. لكنني كنت على يقين أنها كانت تتحدث مع فارس.. كانت تذهب إليه وترقص في شقته.. كانت تتراءى لي وهي تهمس في أذنيه كلمات مثيرة.. إنها خائنة.. ترى شبابها في أموال فارس وفي رجولته.. لقد أهملتني.. عيرّتني بعجزي وفشلي، حتى شعرتُ أني أتمرغ في الوحل وأركض عارياً بين الناس.

صورتها كانت تملأ ذاكرتي منذ أن خلق الله آدم وحواء.. حواء نهر من الخيانة ينساب في عروق الرجل.. اندفعتُ نحوها، ركلتها ثانية.. كانت لا تزال تبكي وتتألم.. شعرت أن كل شخص لديه شعور بالسادية في لحظة ما من عمره.. لا شيء أفضل من معرفة أن هناك شخص تحت رحمته يستطيع أن يعزه وأن يذله.. وكيف إذا كان هذا الشخص حواء التي أذلت آدم.. لقد أذلتني.. وقد جاء يوم الحساب.. تساءلتُ في قرارة نفسي: "كيف أذلها، وكيف أنتقم منها!.. ما الذي يمكنني عمله؟، وما هي أفضل طريقة لإقناعها بأنها لا تثير في نفسي أدنى اهتمام، حتى لا أترك مجالاً للمناورة!".

"إنها خائنة".. حدثتُ نفسي.. دائماً كنت أشك في تصرفاتها.. كنت متأكداً من خيانتها.. منذ أن عرفتها أصبحت حياتي جحيماً، وقد حان وقت الانتقام.. يتعين عليّ أن أهينها، وأذلها بصورة كاملة حتى لا تعود إليّ نهائياً.. سأجعلها تندم وتحس بالأسف لما أقدمت عليه، وجعلتني عبداً لها، وتحت رحمة حبها وفتنتها وجمالها!.

الخائنة.. لو كانت شريفة كما تدعي وتزعم دائماً، لما نصبت لي فخاً وأغوتني لأخون مبادئي وأتعلق بها منذ الليلة الأولى، ولما ركضتْ وراء فارس ورقصت بين أحضانه!..

كنت غارقاً في أحلام شيطانية.. فيضان من الكره اكتسحني، ودفعني إلى المنحدرات، وكنت منقاداً لفكرة الانتقام منها كنهر يتبع مجراه.

ما من شيء يمكن أن يكون مهيناً للرجل أكثر من أن يظن بزوجته الظنون ويعتقد أنها تخونه.. حدثت نفسي، الموت أهون.. الموت فكرة رائعة.. فجأة وجدت نفسي اسحب أقسام المسدس، وأصوّبه نحو رأسها وهي عند قدمي.. لم تقاوم ولم تتحرك، بقيت صامته كجثة مهملة.. شعرت أنها تطلب الموت وتتمناه، واعتقدت أنها تدفعني لقتلها بتصرفاتها هذه لترتاح من الجحيم الذي تعيشه، وأبقى غارقاً فيه.. لكن لا، لن أعطيها فرصة العمر، ولن أجعلها تحصل على ما تتمناه.. سأتركها تعيش لتتعذب، وترى العذاب الذي أقاسيه من أجلها.

مثل سلة قاذورات مهملة كانت متكورة، إناء مهشم.. للمرة الأولى في حياتي أدرك معنى القدرة على الشعور بالسادية.. وكمريض بدأ يتماثل للشفاء، بدأتُ أدرك معنى القوة والسيطرة والانتقام.. عند ذلك عرفت أني أذلها، وأنها في اللحظة القادمة ستطلب الرحيل من حياتي إلى الأبد.. فجأة وجدت نفسي أبتسم، أضحك، أسخر من كل شيء.. شعرت أني انتصرت بكل حواسي عليها، أعدت أقسام المسدس، وولجتُ غرفتي أنظفه.

بعد أكثر من ساعة، قامت أحلام ودخلت الحمام، اغتسلت وأطالت المكوث تحت الماء الساخن.. شعرتُ أنها تعد نفسها لتنهدات ليل لن يبزغ له فجر.. رائحة عطرها سبقت توهّج قميص نومها الأسود الطويل وهي تنسحب إلى غرفة النوم.. فتحتْ باب الخزانة، وقفت قبالة المرآة تتأمل صفحة وجهها.. سرّحت بأصابعها خصلات شعرها الأشقر المتدلية على جبينها.. تمايلت وهي تعبث بحمّالات نهديها متأملة انتصابهما، احتضنتهما براحتيها، ثم اتجهت إلى السرير، اضطجعت عليه.. أضاءت المصباح.. فتحت كتاباً وأخذت تتصفح أوراقه.. بعد لحظة ألقته جانباً، وبدأت تدندن أغنية قديمة لفيروز محاولة أن تسمعني أناتها وتأوهاتها.. ومع ذلك كنت قادراً على المضي قدماً في موقفي المتعنت، لكني شعرت أن صبرها قد نفد.. نهضتْ من الفراش.. تقدمت نحوي، ووقفت تُطوّق عنقي بذراعيها.. توقفتْ لحظة وكأنها تستشعر مدى استجابتي لها، وحين لم تجد معارضة

انزلقت يدها إلى صدري.. كانت تنظر في عيني مباشرة وهي تقول بدلال: "أنا بحبك مهما فعلت".. نظرتُ إليها، تابعتْ ويدها تتحسس صدري: "أما زلت صامداً يا أبا الهول".. لم أبد أية استجابة، وبقيت صامداً.. أهزوجتي القديمة بدأت تدق في ناقوس أفكاري.. "أنا صامد، أنا صامد".. وجدتُ نفسي أبتسم لهذه الفكرة.. انحنت على كتفي، وسكبت عليّ ملامس نهديها الناعمتين، ثم أخذت تحك وجهها في وجهي، وأطلقت العنان ليديها لتمارس ضغطاً لإيقاظ غريزتي الهاربة إلى صحراء العدم.

في لحظة ضعف، شعرتُ أن لا مجال أمامي للتغاضي والتجاهل أكثر من ذلك.. ألقيتُ بما في يدي جانباً، وقمت مرغماً معها إلى السرير، متأففا من تعب السهر وثقل هموم الكوابيس التي تراودني.

تلك الليلة نمنا في سرير واحد، حاولتْ التقرب مني أكثر، وحين عرفت أني انقدتُ لأنوثتها، اطمأنت لي، لكن في قرارة نفسي كنت احفر لها قبراً لتلقي بنفسها فيه عن طيب خاطر.

حين انتهيت، شعرتُ برجولتي التي فارقتني منذ عشرات السنين، واعتقدت أنها لن تعود، قد عادت إليّ.. وفي زهوة الفرح والنشوة قلت "بحبك يا سعاد".. فجأة سرت قشعريرة في جسدها، رجفت تحت جسدي، أزاحت وجهها جانباً وسمعتها تتمتم.. "سعاد!"، ثم غاصت في بحر من الدموع، ولم تنطق بحرف آخر.

مرّ ليل وتلاه نهار، وأحلام في البيت تعيش نادلة حقيقية.. قصّت شعرها الأشقر الطويل، بدت نحيلة بعض الشيء.. وبدوري بدأت أهرب إلى عالم الثورة الذي كان يشدني يوماً بعد آخر، ومع ذلك لم تغادر البيت، بدت راضية بحياتها رغم كل محاولاتي لأجعلها تغادر بلا عودة.

دائماً كانت تُذكّرني بأنّ المشروبات كالسم الزعاف، موت بطئ واختياري، وكنت أعاندها وأفعل كل شيء ضد رغباتها.

مع مرور الأيام بدأت أتعوّد على شتيمتها، وبدورها بدأت تتقبل الأمر الواقع.. إنجاز المستحيل، فقدان المظهر والصورة، إضاعة الوقت، تحطيم القيود العصبية، إبراز البقع في ثوبها واتّساخه.. التسريحة المتمردة التي تبدو كعرف الديك وتظهرها كأنها امرأة معتوهة، ومشيتها التي أفقدتها حيويتها وأنوثتها.. مثل متسولة جائعة على رصيف قذر، بدت لي عندما فاجأتها يوماً وهي تبكي.. سألتها عن سبب بكائها وألمها.. قالت إنها تنتظر مولوداً..

كالقذيفة، كان وقع كلماتها على رأسي.. شعرتُ برجفة، دارت الدنيا في عينيّ.. لم أعرف كيف أتصرف.. هذه المخلوقة لم تترك مجالاً للعقل.. دفعتني للجنون بحماقاتها وتصرفاتها.. فكّرتُ بالهروب نهائياً من حياتها.. هذه المرة أنا سأترك لها البيت.. راودتني فكرة الانتحار للخلاص من كل شيء.. تساءلت في

قرارة نفسي: "هل هذا وقت يصلح فيه الإنجاب!، وهل أبدو كأب لمولود من هذه المرأة!".

عرضتُ عليها فكرة الإجهاض.. رفضت وأصرت على الاحتفاظ بالجنين ولو كلفها ذلك حياتها، قالت بأن هذا ما نالته من الدنيا، وهو حقها ولن تفرط به.. وراحت تبكي حالها وتهذي بكلمات حزينة وجريحة، وهي تقول أن الدنيا أظلمت في وجهها منذ أن طردها جيش الاحتلال من الوطن، وزادت الظلمة في عينيها منذ أن فقدت شقيقها محمود الغزاوي في ليلة مشؤومة على أطراف مخيم شاتيلا.. دارت الدنيا في عينيّ وأنا استمع لكلماتها، وعرفت أني السبب فيما عانته من شقاء وتعاسة بعد مقتل أخيها، ولم أدرِ كيف أتصرف، هل أعترف لها، وأعتذر عما عانته معي وما جنته يداي بحقها وحق أخيها، أم أتجاهل الموضوع!.. فجأة وجدت نفسي أحمل سلاحي وأهرب من عينيها ودموعها تلاحقني بعد أن اشتد الحصار على المخيم، وبدأوا يقصفونه بالمدفعية الثقيلة، مما دفع الناس إلى الملاجئ.. وأحلام بينهم.. كانت تبكي وتتألم.. كان الجميع يتألمون.. والغزاة يتقدمون نحو المخيم لتدميره في أكبر عملية اجتياح.

***

١٤

استفحلت الأمور وتعقدت، وحياة الآلاف باتت على كف عفريت وشفير هاوية.. تقدمت القوات الغازية وحاصرت المخيمات بحجة القضاء على حملة السلاح، وبدأت الجرافات تسوي البيوت بالأرض.

كانت الحرب قد بدأت فعلاً، ولم أعد إلى البيت.. تركتُ أحلام وحيدة تواجه مصيرها بعد أن عرفتُ ما عرفت عنها وعن أخيها، ولشهرين متتاليين ظل اطلاق النار متواصلاً والمدافعون صامدون في مواقعهم، يتسابقون إلى الشهادة، ويتراكضون بين كر وفر دون أن تظهر عليهم علامات الاستسلام.

كان تساقط القذائف اشد من زخات البرَد في شهر كانون.. صفى الجميع حساباتهم مع الجميع.. والغزاة يتدفقون جماعات ومتفرقين في قواقعهم الحديدية، تغص جعبهم بالحقد والسجائر والمأكولات الشهية، بينما يموت أبناء المخيمات جوعاً.

وسط تساقط القذائف كنت ورفاق السلاح من خلف المتاريس، ننتظر قدوم الغزاة بفارغ الصبر.. انطلق صوت جهوري خلفي يغني.. "أنا صامد، أنا صامد".. فردّ عليه أحد المقاتلين: "ها نحن كالجبال صامدون".. وردّد المقاتلون معاً.. "وإن قتلوا أولادنا نحن صامدون".. أوقف أحدهم النشيد وقال : "والله لقد استشهد

الاثنــان معــاً".. وتــابعوا النشــيد بصــوت واحــد.. وحــين وصــلوا عبـارة: "وإن هدموا بيتـي أنـا صـامد".. زغـردت عجـوز خلفنـا، وقالت امرأة تحتضن وليدها: "لم يبق لنا منه غير الذكريات".

كان يقيناً أن المدافعين لن يركعوا، ولن يدخل الغزاة المخيمات إلا على جثثهم.. روحي بدت مقيدة فـي ثقب رصاصـة، وجسدي مسجون داخـل أسطوانة بندقيـة.. كـان المقـاتلون كـالمردة الـذين خرجوا من قماقمهم للتو.. بدأوا يعدون ذرات التراب التي سُرقت ويحـاولون استعادتها بجثـثهم.. بـأرواحهم.. بـدمائهم التـي كانـت تروي الأرض، وتمتد كالشرايين إلى الحقول العطشى في الوطن.

القذائف تتساقط والانفجارات تتوالى، والغزاة يتقدمون.. سقط أحد مخيمات الجنوب.. سيطر القناصون على أطراف مخيم آخر، وبـدا القلـب النـابض فـي نزاعـه الأخيـر.. القبـور تتنـاثر، والقطـط والكلاب تعيش على فتات الجثث المتفحمة.

لقد تعب الجميع من الزحف علـى شفرات وسكاكين القناصـين والقتلـة، وبـاتوا يركضـون علـى حـد الشـظايا والمناشـير.. ألسـنة الحرائق ارتفعت وعانقت السماء، والمخيم بـدا كومـة من الفحـم الأسود.

اللعنة على الحرب.. فيها استبدل المحاصرون حليب الأطفال بزجاجات مملوءة بالدم، وأشبعوهم من الموت والـدمار.. لحظـات الموت حزينة وصامته.. فـي الحـرب ينسـى المرء خوفـه.. ينسـى كل شيء.. يفكر فقط كيف يحمـي رأسـه.. كنـت أتقدم وأتراجع،

أهذي، أطلق الرصاص، أقاتل، ألم الأشلاء، أموت، أتعفن، أصرخ، اللعنة على الحرب، اللعنة على الصهاينة، اللعنة على العالم كله، اللعنة.. اللعنة..

كانت الأوامر الصادرة للجيوش الغازية بأن يستمروا في القتال.. "اقتحموا المخيمات.. دمّروها على من فيها.. اضربوا حيثما شئتم.. ضاجعوا من تشاؤون.. وإذا لم يبق شيئاً، فتغوّطوا على جثثهم، ليشهد تاريخكم بوجودكم هناك.. ليس من تاريخ.. العرب بلا تاريخ.. العرب لا يهمهم التاريخ.. تاريخهم يكتبونه حسب أهوائهم.. تقدموا.. النهاية قريبة.. النصر على مرأى البصر وقيادة الإرهابيين على مرمى حجر".

الأوامر تتوالى.. "المزيد من القتلى والجرحى.. المزيد من المشوهين ومعطوبي الحرب.. أحرقوا.. دمّروا كل ما تطاله أيديكم.. لا تتركوا لهم أثراً".

القذائف تتوالى أيضاً، والرصاص يقترب، لا أعرف من أين يأتي، ولا أي روح يزهق.. الناس يتراكضون، يتساقطون، يئنون، يروحون، يجيئون، يبحثون عن قتلاهم، ثم يموتون.

لا أحد يعرف أحد.. واحد فقط عرفته من بين جميع من دخلوا منظار بندقيتي.. فارس ظهر أمام بندقيتي فجأة.. كان يركض مثل كلب يلحق عظمة.. الخيانة تلاحقه كظله.. دارت الدنيا في عينيّ.. تراءت لي أحلام في الأفق تقترب من المنظار المكبر أيضاً وتنفد

إلى حدقتي عينيّ.. أزير طائرة يمخر في عباب السماء.. الطلقات تلاحقها.. الانفجارات تهز المنطقة، والطائرة تتوارى وتبتعد.. براميل من أمطار النابالم تتساقط.. سحب الدخان تتلبد في الجو، وتملأه غيوماً سوداء.

أحلام ما زالت تتراءى لي.. تضيع في مؤخرة راسي مع جثة أخيها محمود.. تلاحقني كالموت الأسود، ثم تتلاشى مع جثة أخي صالح.. فجأة ضغطتُ على الزناد.. مثل صخرة ارتطم فارس بالأرض.. سقط ولم يتحرك.. خُيّل لي أني شاهدتُ جثثاً أخرى تتمزق وتتطاير أشلاؤها.. الدماء ملأت عروقي، ملأت الأرض، أحسستُ بانتصاري على الموت.. لم يعد الموت يخيفني، لم يعد فارس يرعبني بكوابيسه، لم يعد يطارد أحلام ويثير أمواج الغيرة والغضب في حياتي.. صرخت، دارت الدنيا في عينيّ، شعرتُ بنشاط وبقوة لإطلاق النار من جديد، الغزاة يملؤون منظار بندقيتي من جديد، اللعنة عليهم، أنا لست بحاجة إلى منظار بعد هذه اللحظة، لا أريد أن أحتمي خلف منظار، سأواجههم بوجهي، بسلاحي، بجثتي، بروحي.. اللعنة عليهم، اللعنة على فارس، إنهم يستحقون الموت.. الرصاص ينطلق، الموت يتقدم، لن نستسلم، لن نركع، ولن نذل بعد الآن.

حاصروا المخيم، مات المئات تحت الأنقاض.. بعد أكثر من ثمانين يوماً من القتال المتواصل وحصار بيروت، أعلنت الأطراف المتقاتلة وقفاً لإطلاق النار.. كانت شروطه أن ينسحب

المقاتلون من داخل المخيمات ومن مدينة بيروت بأكملها.. تجمّع المقاتلون استعداداً للرحيل على متن سفن تقلهم إلى بلاد بعيدة.. وحين ألقيتُ نظرة الوداع على المخيم وأنا أودعه، كانت أحلام تملؤه.. ولأول مرة شعرتُ أني افتقد شيئاً مُهمّاً في حياتي، ولم أكن أدري أني أحمل كل هذا الحنين والشوق إليها.

تحرّك المقاتلون نحو السفن لمغادرة أرض الصمود، ركبوا البحر ليتيهوا في بلاد الشتات من جديد، وحين أقلعت السفينة التي أستقلها وأخذت تبتعد عن المدينة، شعرتُ بخفقان واضطراب في قلبي، وعرفت أنى افتقدت كل أشيائي الحلوة.

في عرض البحر وأنا أودع المباني التي كانت تتراءى لي وهي تبتعد تدريجياً عن ناظريّ، شعرتُ أني فقدتُ شيئاً عزيزاً على قلبي.. فقدتُ مع أحلام كل أحلامي، وعلى متن السفينة كنت فقط جسداً بلا روح.

***

أحـلام

١

فــي بيـروت، مدينــة التيــه والشـتات والغربــة التقيـتُ بشـريف، وحيدة وضائعة..

فــي غربتــي عرفتُ أن السـجن فـي الـوطن أرحـم وأفضـل مـن الحياة في المنفى.. لم أكن أتصـور أن كل هذا سيحدث معي فـي سنوات قليلة.. كنت شابة منطلقة في الحياة، أعرف كيف أتصرف في الملمات.. أما في بيروت فكنت ضعيفة حتى النخاع.

الحرب الأهلية في لبنان قطعت أوصالي.. في أعماقي صـرخة ألم تهتز لها بقاع الأرض قاطبة.. لكن مَن يسمع!؟.

قبل سنوات قليلة كنت أعيش مع أمي وأخي "محمود" في غزة أرض الثـورات، أخـي كـان يعـانق المجد مـع الثـوار.. هـو الـذي علمنــي كيـف أسـاعدهم، أكـون لهـم عينـاً وأتحـرى المعلومـات.. وحين ألقى الأعداء القبض عليه زغردت أمـي، وقالـت إنـه يكتب سِفراً جديداً في سجل المجد، بعد أن سجّل والده صفحة ناصعة فــي سـجل الخلـود.. حـاكموه بتهمـة "الإرهـاب"، وزجـوا بـه فــي غياهب السجون المظلمة.

حين عاد جنود الاحتلال لتفتيش البيت ثانية عن أسلحة وذخائر كما قالوا.. قاومتهم والدتي ولعنتهم، لكنهم لم يأبهوا لها، وعندما لم يجدوا شيئاً أمروا باعتقالي، ثم قلبوا أغراض البيت رأساً على عقب، وأخرجوا والدتي منه عنوةً ونسفوه، ثم قادوني إلى السجن.

سياط الجلادين كانت تحفر أخاديد في ظهور السجينات، لا تصرخ إحداهن ولا تتأوه، بل تزداد صلابة وعناداً وإيماناً.. تضيق الزنزانة وتختنق.. يستمر مجيء قوافل الأخوات.. يكبر الأمل، وتطمئن القلوب بالغد المشرق للأطفال.

الصراخ كان رهيباً يملأ الحجرات.. العذاب لم يتوقف، الليل الطويل يزحف ببطء على صدور السجينات، ويشقها كخنجر.. وثمة نشيد خافت لا يلبث أن يتحول إلى شيء أشبه بالعاصفة..

"سدوا عليّ النور في زنزانة..
فتوهجت في القلب شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتي..
فنما على الجدران مرج سنابل".

الصوت يعرفه كل الثوار، ويسمعه كل عشاق الحرية.. صوت الثورة يختصر الزمن ويلغي المسافات.. الثورة بركان يثور ولا ينقطع عن الغليان.

الأناشيد تشق دياجير الظلام كما انبثاق الفجر، وكلما التهبت الجراح من أثر التعذيب، علا الصوت:

"ولقد كسرت القيد.. قيد مذلتي..
وسحقت جلادي وصانع نكبتي..
ونسفت سجني وانطلقتُ عواصفاً..
لهباً يدمدم تحت راية ثورتي"..

ليلتها قيدونا بالأصفاد لخنق أصواتنا، لكن الصوت لم يختنق.. في الصباح حاكمونا محاكمة صورية، وحكموا عليّ بالنفي مع أخي محمود خارج الوطن.. أخرجونا من الجنة، وألقوا بنا في غياهب الضياع.

***

٢

في شمال الوطن وجدنا أنفسنا نشق الطريق إلى بيروت، مدينة الموت والدمار.. في البداية استطاع أخي محمود أن يجد له عملاً، ويؤمن لنا احتياجاتنا الضرورية في الحياة.. عمل ثانية مع الثورة، واستطاع في مدة قصيرة أن يجمع عدداً من الأصدقاء وطلبة الجامعة في صفه.. صالح كان أفضلهم، كان يتردد عليه بين الحين والآخر، لكني لم أكن أتدخل في شؤونه، على أمل أن أعود للوطن كما وعدني أخي أكثر من مرة، كان يبذل جهده لإعادتي، محاولاً الاتصال بأكثر من جهة لها نفوذ.. لكن القدر كان له بالمرصاد، حين أستشهد مع زميل له في ليلة مظلمة، عندما وقعوا في مرمى مجموعة من القناصين القتلة قرب مدخل مخيم شاتيلا.

كانت الصدمة قاتلة، والخبر كان بمثابة نعياً لي، وانتهاء مسيرتي في الحياة.. أجنحتي تكسرت منذ ذلك اليوم، ولم أعد قادرة على التحليق والطيران.. وفي بيوت المطحونين داخل المخيم نسيت ثورتي وشجاعتي، وبدأت أبحث عن لقمة الخبز لأستمر في الحياة.

في مدينة الموت والأشباح بدأت أتعوّد على الحياة من جديد.

في مدن الرعب والدمار تنبت للإنسان أشواك، وتبرز له أنياب.. يصبح فريسة في لحظة عدم، إن لم يكن هو الوحش المفترس.

حياتي ضاعت في بيوت الصفيح المرعبة وسط المخيم.. لم أعد أقدس الثورة.. كفرت بكل معانيها ومعطياتها.. إنها كابوس يجلب الهم والموت والرعب.. تدفعنا دفعاً لنحفر قبورنا بأيدينا.

لا شيء يبعث على الرجاء غير ما ينبعث في القلب من إيمان، بأن كل شيء لا بد أن يتغير، ولا بد لليل من آخر.

بدأت أعاني من ألم الوحدة.. تدرّبت مع مجموعة على استعمال السلاح الخفيف لاتقاء الموت.. لكنني لم أطلق رصاصة واحدة.. شعرتُ أن الموت يحمل كفناً يلاحقني دائماً بعد استشهاد أخي محمود.

***

لم يكن أمامي غير العمل، رحتُ أبحث عنه في المحال التجارية والمطاعم.. حالفني الحظ وعملت في مطعم، لكن صاحب المطعم كان صياد نساء.. وحين صددته، طردني.. وجدت نفسي أحمل هموم العالم وأجلس في حافلة عائدة إلى البيت.

في الحافلة فوجئت بفقدان ما أحمل من نقود، ومفتش التذاكر يلحّ عليّ بطلب التذكرة المفقودة أيضاً.. فقدتُ زمام السيطرة،

وكادت الدموع تقفز من عينيّ، وأنا أحاول كبت الصراخ الذي يضج في أعماقي.. شعرتُ أن في داخلي عشرات القنابل القابلة للانفجار، وعندما لم أنفجر، استسلمت لقدري.. عقدت يدي على صدري ولذت بالصمت.

فاجأني شاب يجلس على المقعد الذي أمامي عندما تدخّل وأنقذ الموقف، تركت الأمور تجري على عواهنها كما أراد لها القدر، وانتظرت اللحظة القادمة لأشكره على رجولته، لكن مفتش التذاكر لم يعطه فرصة.. وتسارعت الأمور حيث توقفت الحافلة وغادر الشاب المقعد.

كنت آمل أن يصعد ثانية، لكن الحافلة تحرّكت دونه.. بحثت بنظراتي عبر النافذة علّني أراه، كان واقفاً ينظر إلى الحافلة وكأنه فقد شيئاً.. حاول التحدث معي لكني لم أسمع صوته، ولم أعد أراه.

عدت إلى المخيم ثانية، في المخيم أقمتُ مع صديقتي "مُنى" التي تعرفت إليها منذ وصولي المخيم.. وطيلة الأسابيع التي تلت ذلك اليوم بقيت ملامح وجه الشاب عالقة في مخيلتي.. تمنيتُ لو أراه لأشكره على فعلته، وبقيتْ التذكرة عالقة في حقيبتي طيلة الوقت.

"مُنى" كانت الصديقة الوحيدة التي حمّلتها همومي.. طالبة من الجنوب الصامد، جاءت إلى بيروت لتكمل دراستها الجامعية، جميلة ومثقفة.. دعتني للسكن معها في غرفتها عند أقرباء لها،

وتوسطت لي بالعمل في مطعم قريب من الجامعة.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي ظهر فيه الشاب من جديد.

في المرة الأولى لم أعرفه.. كنت قد نسيته تماماً.. في البيت حاولت أن أتذكر ملامح وجهه من جديد، لكنني لم أفلح.. بحثتُ عن التذكرة.. وعندما وجدتها في حقيبتي، عادت المشاهد تتبختر أمام مخيلتي رويداً رويداً.. تذكرت كل شيء، ونمت تلك الليلة وأنا أرقب الصباح لأشكره على صنيعه السابق، لكنه لم يحضر، وبقيت أترقبه لأيام قادمة حتى أصبح الانتظار شوقاً إليه.. وحين قطعت الأمل من مجيئه، عاد ثانية، فاجأني بدعوته لي خارج المطعم.. وجدت نفسي منقادة له وأنا لا أدري كيف أشكره على موقفه الشهم في الحافلة.. بدأت أجامله إلى أبعد الحدود، لكنني شعرت أنه يخبئ في أعماقه آباراً عميقة مظلمة.. كانت عيناه تناديني.. فتح أبواب الجنة في وجهي، ودفعني للدخول في حياته من أوسع الأبواب.

في بلاد التيه والشتات التقيتُ ب "شريف"، وحيدة وضائعة.. قال لي: "أنا الصحراء وأنت السحاب والمطر".

في أعماقي شعرتُ بانجذاب نحوه.. أحببتُ أن أغوص في أعماقه أيضاً.. لم أجد فيه ما يعيبه.. وكوْني فتاة وحيدة تطمح إلى الاستقرار، فقد هيأتُ كل الأسباب لاستمرارية علاقتنا.

عندما دعاني إلى بيته لم يخطر ببالي أن الأمور ستسير بهذا الشكل.. كان النهر ينساب هادئاً في مجراه تلك الليلة.. وقْف إطلاق النار كان ساري المفعول، ولم أكن أدري أن أول طلقة ستعصف بوقف إطلاق النار، وتحيل الهدوء إلى دمار.. كما لم يخطر ببالي أن سحابة ممطرة ستجعل النهر يفيض ويغرق القاطنين على ضفافه.

في لحظة ضعف وجدتُ نفسي أنهار أمام أسطورة الخيانة.. حاول الشريف أن ينتزع مني كل حصتي وحقي في الحياة كإنسان يأمل ويطمح، ويحاول أن يجد له مكاناً على وجه هذه المعمورة.

وثقتُ به.. كنت بأمس الحاجة إلى شخص أثق به، أبكي على صدره، وأزيل عن كاهلي همومي بعد استشهاد أخي.. وجدت فيه الرجل الشريف الطيب.. منفي عن وطنه مثلي تماماً، لكنه نفي اختياري في سبيل العلم.. طالب جامعي ينتظره مستقبل مرموق.. نسجتُ قصوراً من الأحلام معه، وأنا أتشوق لتخرجه والعودة معه إلى الوطن، لكنه خدعني، وجردني من كل حقوقي وإنسانيتي.

كانت طعنة نجلاء أصابت مني مقتلا حين وثقتُ به وصدّقته.. لا شيء أكثر إيلاماً للنفس من أن تفقد الأمل في مَن تعقد الأمل عليه.. كل شيء يهون عداه.

أسقط نفسه من عينيّ، وأعلن بصراحة متناهية عجزه وعدم قدرته على التعامل الإنساني.

نادراً ما كنت أنهار أمام المصاعب، لكن تلك الليلة كنت أشعر بالدموع تجري على وجهي وأنا أنظر إلى سقف الغرفة.. كان الأمر يفوق قدرتي على التحمل، ولساعات طويلة بقيت صامتة وعاجزة.

بمشاعر محطمة، عانيتُ تمزقاً من نوع خاص تلك الليلة، ولم أكن قادرة على استيعاب ما حصل.. في قرارة نفسي تساءلت: **"لِمَ** أنا بالذات من بين الجميع مَن تجد نفسها منتخبة للعقاب على هذا النوع**!؟"**.

كانت النيران تتقد وتهتاج تحت جلدي، وبدا أن شيئاً كحمم البراكين يصطرع في أعماقي.

منذ تلك الليلة والدم الحار يتسرب من كل أنحاء جسدي ويحرقه.. لمحتُ لبرهة وجيزة تألقاً مدمراً يلتمع في عينيه.. لم أكن أشعر بما يجري حولي.. رأسي كان يدور ويدور.. سكرت على كلماته الناعسة ووعوده الرنانة المتكررة، التي جعلت مني امرأة فجأة.. كانت همساته أشد تأثيراً من السحر.

صددته منذ البداية.. لطمته، حاولتُ الهروب من بين ذراعيه، لكنني لم أفلح.. ساقاي كانتا في حالة ضعف شديد، وكان شريف

ثملاً وقوياً.. وللحظة شعرت أني كقطعة ثلج أذوب بين يديه.. دفعني إلى الجانب الآخر من السرير.. لذت كجرذ أمام قط متوحش، وسمعته يتحدث عن الخطأ والصواب، وعن الحق والفضيلة.. وحين صحوت كان كل شيء قد انتهى..

المرآة أول من سجّلت جريمتي، فيها شاهدت نفسي متكوّرة أبكي وأعاني من شدة الألم النفسي، وأنا أحاول بكل الطرق التشبث بشرف لم يعد يعترف به أحد، بعد أن فقدت عذريتي.

في قرارة نفسي تساءلت: "ماذا لو علم أهلي بالأمر.. أقاربي!.. ماذا لو حصل شيء، فضيحة مثلاً!.. الموت شرف.. وأي شرف وأنا المنفية عن وطني، والعار يلاحقني ويلاحق عائلتي لأجيال قادمة!".. تهالكتُ على السرير، شعرت أني مثل دمية خزفية ألقيت بإهمال وتهشمت.. انفعالاتي كانت مركّبة، مثل طبقة من الألوان المتداخلة، وأنا أشعر بانسحاق مفاجئ.. يقهرني غضب مرير للغاية، وصوتي يخفت بين الألم والأنين.

تلك الليلة رجوته أن يسترني، يتزوجني.. تثاءب ومطّ شفتيه، وبعد إلحاح متكرر وبكاء مرير عند قدميه، وعدني بالزواج في أقرب فرصة بعد أن يُرتّب أموره.

في الأيام التي تلت ذلك اليوم المشؤوم، ألححتُ عليه أن يفي بوعده، لكنه كان يتهرب مني، ويتجاهل وعده بالزواج، مما دفعني لمغادرة بيته والعودة إلى بيت صديقتي مُنى.

في بيت مُنى وجدت نفسي أغرق بدموعي، وأنهار أمامها، اعترفت لها بكل شيء.. ذُهلت وهي تسمع حكايتي، ولم تصدق أني سقطت من التجربة الأولى.. كانت ناقمة على كل الرجال.. لعنتهم جميعاً وتمنت أن تخترق الشريف فيهم رصاصة طائشة.. ثم وعدتني أنها ستجد حلاً، وعندما غادرت مُنى الغرفة في الصباح، بقيت طيلة النهار وحدي أهيل الدموع، أتصفح وأجتر سنوات عمري الضائعة.

تلك الليلة باتت مساماتي تنبع ألماً وحريقاً.. جروحي تقيّحت في ساعات قليلة، كفرت بالجنس البشري على ما فعله شريف معي تلك الليلة.. لكن وعده بالزواج أعاد لي بعض الأمل في الحياة.

ثقتي بشريف لم تدم طويلاً.. ذهبتُ إليه ثانية، لم أجده في البيت، وجدتُ شخصاً آخر قال إنه صديقه..

ما أن فتح الباب حتى شاهدتُ على وجهه ابتسامة خبيثة مبالغ فيها.. توقفت.. لا أدري كيف انقلب وجهي تماماً.. سألته عن شريف!.. قال محاولاً أن يبدو لطيفاً: "تفضلي سيصل حالاً".. أخبرته بأني سأعود في وقت آخر، أصرّ وقال: "لا يصح أن تغادري قبل أن يعود.. أنا فارس صديقه في الجامعة، تفضلي.. لقد ذهب شريف إلى البقالة وسيعود بعد دقائق".

دلفتُ إلى الداخل، لكني لم أكن مطمئنة له.. جلستُ أنتظر شريف، جلس فارس على مقعد أمامي متعالياً مثل طاووس، محاولاً أن يظهر روحاً مرحه.. وحين حاول الكلام شعرتُ أنه لا يدري ماذا يقول!.. داهمته فكرة ما.. تلاشى ما تبقى من مرحه.. لاحظت أن تغييراً طرأ على سيماء وجهه، وذاب إحساسه بالخجل، فتجنبت النظر إليه، ثم جاءت كلماته مترددة متحيرة:

- عفواً لم أقدم لك شيئاً.. هل أقدم لك عصيراً أم فنجان قهوة؟

لم ينتظر جواباً.. أسرع إلى الثلاجة وأحضر عصيراً.. وأطال الوقت وهو يختلس النظر إلى ساقيّ.. بدا فريسة لأفكار لعينة.

جلستُ ثانية لفترة قصيرة.. قلت له:

- منذ فترة لم أقابل شريف.. أنا بحاجة إليه.. أرجوك أن تخبره بمجيئي، وإني على استعداد لقبول أي شيء من أجله..

كانت كلماتي متقطعة، وصوتي بدا ضعيفاً وباهتاً، ولم أستطع كبح الدموع التي سالت من عيني أمام فارس.. شعرت أن الوقت قد تأخر، قلت:

- يبدو أنه لن يأتي الليلة. ولم أنتظر الجواب، وقمت مستأذنه في الخروج.

ألحّ فارس عليّ بالانتظار، لم أتراجع.. طلب أن يوصلني إلى المكان الذي أقصده، لكني لم أعطه فرصة وغادرت المكان.

لأسابيع تالية تردّدتُ على البيت ولم أجد فيه أحداً.. اعتقدتُ أن شريف ترك البيت حتى لا نلتقي ثانية.

مُنى كانت تدفعني إلى الانتقام منه.. وحين لم تجد تجاوباً مني حاولت الوصول إليه لإقناعه بالزواج مني، لكنها لم تستطع الوصول إليه أيضاً.. ألحّت عليّ ثانية أن أرفع عليه دعوى بتهمة الاغتصاب، خاصة وأني بدأت أتأكد من حملي نتيجة تهوري تلك الليلة.. لم أوافق مُنى أيضاً.. فدعتني للتشهير به بين زملائه في الجامعة، وأن أفضحه أمام أساتذته.. ولم أوافق أيضاً.

كنت أذهب أثناء وقف إطلاق النار إلى الجامعة أبحث عنه، ومع ذلك لم أجد له أثراً.. بعد أكثر من ثلاثة أشهر التقيتُ به في بيته.. كان غاضباً، واتهمني بالخيانة مع صديقه فارس.

راودتني نفسي تلك الليلة أن أقتله.. لم أكن أعرف أن في أعماقي كرهاً بهذا الشكل.. وتمنيتُ أن تخترق جسده رصاصة طائشة.. وللحظة فكّرتُ أن أستأجر قناصاً ليقضي عليه، لكن ما في أحشائي منعني من ذلك.. كتمتُ غيظي، فجأة وجدت نفسي أنهار أمامه وأنا أبكي بحرقة وألم، ثم أخبرته عن الجنين الذي ينمو داخل أحشائي.

زفر وكأنه يشهق نَفَسه الأخير وقال: "كأنك قدري.. القرب منك مثل الابتعاد.. كلاهما يعنيان لي الانتحار".. ثم أشعل سيجارة وتراخى على مقعد قريب وأضاف: "اهدئي، غداً نتزوج"..

في قرارة نفسي لم أصدق قراره المفاجئ، ومع ذلك ابتسمتُ له وسامحته على مضض.. ونمتُ عنده تلك الليلة حتى لا أعطيه فرصة للتراجع عما قال.. كما لم اترك له مجالاً ليقهرني ثانية.. شريف كان مقهوراً من أعماقه.

صباح اليوم التالي رافقته إلى المحكمة.. وحين عدنا إلى البيت كنت أحمل في يدي قسيمة زواج لأتعس زوجين.

عند المساء فاتحني برغبته في الخلاص من الجنين.. في البداية عارضتُ رغبته.. لكنه أكّد لي أنه لا يرغب فعلاً بالجنين.. أحببت أن أجاريه وتطوعت بالذهاب معه إلى طبيب، على أمل أن يتراجع عن قراره في أية لحظة قادمة.. لكنه كان مصراً، وأنا بدوري تمسّكت بحلمي، وأفهمته أنه لا يمكن أن أفرّط بما في بطني حتى لو فقدتُ الحياة.

تقبّل شريف الأمر الواقع على مضض، واعتقدتُ أنه اقتنع بفكرتي.. لكنه كان ماكراً، ولم أكن أعرف أنه يضمر لي كل هذا الحقد.

كانت آلام المغص تنتابني بين وقت وآخر، لكن فترة الحرب طالت.. ولم استطع مغادرة البيت لزيارة طبيب.. وفي لحظة خفّت بها حدة القصف المتبادل بين المتقاتلين، طلب مني أن يعرضني على طبيب، قال إنه اتصل به سابقاً، وشكا له حدة المغص التي تنتابني.

كنت في حالـة تعب شديدة عندما وصلت العيـادة، ولـم أدر مـا دار بين الطبيب وزوجي.. لكن الطبيب طلـب منـه أن ينتظـر فـي الخارج ليتم فحصـي.. ثم طلـب لـي كأساً من العصـير، ولـم أكـن أدري أن فـي العصـير مـادة مخـدرة.. شـعرتُ أن قـوّتي خـارت.. وأذكر أن الطبيب ساعدني على التمدد على السرير، ثم غبتُ عن الوعي..

حين صحوت، كان الطبيب يقف عند رأسـي، قـال: "الحمد لله على سلامتك".

تساءلت عما حدث معي!.. وسألتُ عن شـريف، قـال: "لـم يـأتِ بعد، وكان الجنين ميتاً.. أنتِ الأهم في الحياة".

لـم أصـدق كلمـة واحـدة ممـا قالـه، وعرفـتُ أنهـا مـؤامرة.. صـرخت، بكيـت، تألمـت مـن أعمـاقي، وتمنيتُ أن لا أرى وجـه شريف أبداً.. ثم غادرت العيادة خلسة إلـى حيث أقيم مـع زميلتـي مُنـى.

كانت مُنى تعبة هي الأخرى.. ثرثرنـا كثيـراً تلك الليلـة.. شـعرتُ أن نقمتـي أشد وألعن على شريف من بقية الرجال، وإنني لن أعود إليه أبداً.. وفي نفس الوقت فكّرتُ أنه لا يمكن أن أبقى وحيدة إلـى الأبد وأنـا علـى ذمـة رجل.. ولـم أشأ أن أضـيف همـاً جديـداً إلـى هموم مُنـى.

بعد أيام عدة عدت إليه.. تجاهلت موضوع الإجهاض نهائياً.. وبدوره لم يذكر عن الموضوع شيئاً.. شعرتُ أنه كان في قرارة نفسه نادماً، وبكى على صدري كطفل رضيع.. وفي الليل نمنا كجثتين متلاصقتين لا حياة فيهما.

***

٣

توالت الأيام، وعاد شريف إلى نشاطه، بدأ يكتب بنهم، يسطّر قصصاً يقول إنها رائعة.. كنت أتابعة وأقرأ بعض الصفحات خلسة عنه.. كان يكتب عني أحياناً، وعن حبه وعن موته.. يرصد طلقات القنص ويحيلها إلى أسطر دامية.. كان يائساً من الحياة، وكلمة الموت تتدفق دائماً بين الأسطر وعلى الصفحات البيضاء التي يُسوّدها بقلمه الأسود.

تناسيتُ معه كل ما تبقى لي في الحياة.. أهلي، موت أخي، عودتي المنتظرة إلى الوطن.. حاولت أن أغرس في أعماقه كلمة الأمل بدل اليأس.. دعوته للنوم ذات مرة في فراشي.. تردّد، ثم ألقى بقلمه جانباً ونظر إليّ قائلاً: "تبدين كوردة مخملية تفتحت على ندى الصباح".

مع كلماته الرقيقة كنت أنسى كل الوجود عداه.. قلت: "وما فائدة الوردة إن لم تتمتع برحيقها!".

صمت لحظة وهو يتأمل قوامي.. شعرتُ أن دماغه طاقة مولد كهرباء.. زحف نحوي، ضمني بين ذراعيه، سمعت دقات قلبه تتسارع، أخذ يلهث، فجأة تراجع وسقط على ظهره وأخذ يحدق في السقف.. شعرتُ أنه يتلوى كشخص اخترقه قضيب محمي من طرف إلى آخر.. قال وكأنه يخاطب نفسه: "أنا لا استحق الحياة".

تراءت لي ظلال السقف تتشكل بخيوط سوداء، والغرفة تعتم.. لذت بالصمت.. وبدوره غاص في بئر عميقة مظلمة.. بدأت أدرك حدة السم الفاتر المراوغ الذي بدأ ينغل في علاقتنا، لكني تجاهلت كل شيء، ورجوته أن ينسى ويحاول مرة ثانية.. كان خائفاً، ولم يحاول أن يقترب مني مرة أخرى.. الفشل سيطر على دماغه، وبدا لقمة سائغة لأوهامه.

في اليوم التالي دعوته للتنزه خارج البيت، والانعتاق من هذا السجن الذي فرضناه على أنفسنا.. ومع أنه لبى رغبتي، إلا أني شعرتُ أنه كان يمشي بساقين فقط.. بلا قلب، وبلا عواطف.. عند المساء افتعل مشاجرة، انزويت على أثرها في غرفتي.. وبدوره دخل غرفة ثانية وأغلق على نفسه الباب.

***

مع مرور الأيام، تقاربتُ وشريف بعبارات مقتضبة.. كانت علاقتنا تسير نحو طريق مغلق.. لم يعد لدينا ما نقتات به.. اقترضتُ من صديقتي مُنى نقوداً أكثر من مرة، وبدورها لم تبخل، وأعطتني بعض الثياب أيضاً.

شريف كان يثور دائماً لأتفه الأسباب، خاصة عندما كنت اذهب إلى مُنى، دون أن أخبره عن صداقتي لها، لم أذكر اسمها على أسماعه أبداً ولم أحدثه عنها.. وحين كنت أطيل المكوث عندها، كنت أرى الشكوك في حدقتيّ عينيه، لكنه لم يُصرّح لي بذلك علناً.. كان يتذمر من الأوضاع، ويصبُّ جام غضبه عليّ.

دفعتـه ثانيـة لينشـر مـا يكتـب.. قـال إنـه سمع عـن دار جديـدة للنشر، وإنه ينوي زيـارة مديرها.. دعـاني للخروج معـه.. هنـاك التقينا بفارس ثانيـة.. عرفتـه منذ اللحظـة التي دخلنـا فيهـا مكتبـه، وكذلك هو.. لكني تجاهلت نظراته الوقحـة التـي سلّطها علـيّ منذ اللحظة الأولى، وتركته يتجاذب أطراف الحديث مع شريف.

لم ارتح لهذا الإنسان الصفيق مذ رأيتـه للمرة الأولـى فـي بيت شريف، وتمنيت لو لم يزج بـي شـريف فـي الحديث معه، انتحـى شريف مقعداً جانبياً بينمـا جلس فـارس علـى مقعد قريـب يحتسـي قهوته، ويعرض علـيّ عملاً عنده، تجاهلته ثانية، وتابعتُ شـريف بنظراتــي، رأيتــه يتشــاغل مــع الفتــاة التــي أحضــرت القهــوة، ويتهامســان.. غضــبتُ، لكنــي كظمــت غيظــي.. فــارس لأحــظ غضبي.. قدم لي سيجارة، وجدت نفسي أخطفها من يده بسرعة، فقال بهمس:

- أتريدين أن أنشر لـه بعض قصصـه؟

قلت وأنا أراقب شريف: "هذا شيء لا يعنيني، لكن لا أعارض إذا كانت قصصه تستحق النشر".

ضحك وقال: "وهل تصدقين أنه كاتب قصة!؟".

شريف كان مشغولاً تماماً عنـي.. شعرتُ أنـه يتجـاهلني.. لا، لا، شعرت أنـه كـان ينـوي أن يجعـل منـي امرأة سـاقطة لتحقيـق رغباتــه.. انتــابني شــعور بــالقرف والاشــمئزاز نحــوه.. أطفــأت

السيجارة في المنفضة، وبعصبية وقفت، فوقف شريف أمامي فجأة، ولا أدري كيف صفعني بكل قوته وغادر المكان.. شعرتُ أن النيران غزت عروقي وكل مساماتي، حرقت جسدي.. اندفعت خلفه، حاولت اللحاق به.. عند الباب أوقفني فارس.. سمعته يلعن شريف والساعة التي تعرّف بها عليه.. أغلق الباب في وجهي.. دعاني للهدوء والجلوس.. دفعته من أمامي.. بصقت على وجهه، وخرجت أعدو خارج المكتب.

في البيت كان شريف جالساً يشاهد فلماً قديماً على شاشة التلفاز.. سألته عن سبب انفعاله وصفعه لي ثم تخليه عني**!؟**..

اتّهمني بالخيانة ثانية ونعتني بالمرأة الساقطة، ثم تهالك على المقعد.. خارت قواه، وأخذ يبكي ويعتذر كطفل صغير.

شعرتُ أنه ملجأي الوحيد في العالم رغم ما فعله بي.. إنه أفضل من زنزانة.. لكن الموت أرحم.. وإذا كان لا بد من الموت، فلنمت على حدود المخيم ونحن واقفان.. كانت الطلقات تنطلق بغزارة من كل الاتجاهات.. فكرة الموت هجمت كالبركان على مؤخرة رأسي.. هذا الإنسان لا يستحق الحياة فعلاً.. وجدت نفسي أحمل سلاحه وأطلق النار نحو النافذة.. سقط عند قدمي.. انتحب.. أشفقت عليه وبكيت معه على نفسي.. دفعته لحمل السلاح بدل الذل والاستكانة.. الجامعة ضاعت.. لم يعد لنا مجال غير الصمود أو الموت.. دفعته للموت بكلماتي.. شعرت أني قسوت عليه.. كان صامتاً، ولم يعلق.. كان يحلم بكل شيء عداي.

في الصباح شاهدته يحمل سلاحه الرشاش، ويغادر البيت دون أن يتحدث معي.

لم يعد ذلك المساء إلى البيت.. ارتميتُ في سريري مقهورة حتى النخاع، بكيت طويلاً وأنا أتصوره جثة مهملة في أحد الممرات الضيقة.. وبّخت نفسي، شعرت أني المسؤولة عن حياته وعن موته.. كنت قاسية معه وشريرة في نفس الوقت.. كان الهجوم على المخيم قد غرس كل الاحتمالات في رأسي.. مُنى كانت بعيدة عني، وضميري بات في عذاب مستمر حين أقنعتُ نفسي بأني دفعته للموت دفعاً.

بعد أكثر من شهر عاد.. كان صامتاً صمت البحر.. يتألم من أعماقه، ويئن حتى في صحوة.. غريباً عاد شريف.. ولم يعد شريف ذلك الشخص الذي فقدته.

***

٤

ذات يوم وأثناء وقف اطلاق النار، دعاني شريف للتسوق، وأثناء تجوالنا عرج على معرض لبيع الكتب، وهناك التقينا بفارس ثانية.. وقفا يتحدثان، وبدا كأن شيئاً من سوء التفاهم لم يحدث بينهما.. تجاهلتُ وجودهما معاً، وجلستُ على مقعد جانبي أتصفح مجلة نسائية، ولم اسمع كلمة مما قالاه.. بعد دقائق دعاني شريف للرحيل، كان غاضباً، وافتعل مشاجرة ثانية في البيت.. شعرت أنه يدفعني للرحيل والابتعاد عن حياته.. يحاول الانتحار ويدفعني للموت معه.. لكنى لم احتمل فكرة التيه ثانية في بلاد الموت والغربة.. أقنعته بالعدول عما يُفكّر به.. بدا وكأنه يائساً من كل شيء.. كان يفتعل المشاجرات لأتفه الأسباب.. شعرتُ أنه يؤذيني بكل جوارحه.. يعيّرني بالجهل والفسوق.. لم اعد أطيق الحياة معه.. ثرت عليه مرة ثانية.. انتقمت لنفسي وضربته بزجاجة ماء.. لكنه أمسك بشعري، ضربني، كالثور كان يلطمني بكل قوته.. سقطتُ على الأرض.. حين صحوت كان يبكي على صدري ويتألم.. تناسيت كل آلامي، وغفرت له كل سيئاته.. لكن لحظة السعادة لم تدم.. شريف كان إنسان متقلب العواطف.. لم اعد أعرفه بالضبط.. شعرت أن عنده انفصام في شخصيته.. هوائي.. عانقني، وبكل أدب طلب مني الرحيل عن حياته.. قال بأني لعنة في حياته.. لم احتمل العذاب أكثر من ذلك.. شعرتُ أني حِملاً ثقيلاً في عالمه.. مُنى كانت ملاذي الأخير، لم يكن لي

غيرها.. في الصباح لم اسمع غير طلقات متقطعة في الجزء الجنوبي من المخيم.. تركته يغط في نومه ورحلت.

عند صديقتي مُنى اختبرتُ مشاعري للمرة الأولى وحدي.. حاولتُ نسيانه.. شعرت شعوراً رائعاً بالحرية.. لأول مرة أنظر إلى الناس وأتفحص وجوههم.. الشوارع كانت مكتظة بأناس يسكنهم الوجع.. سيدات بوجوه عابسة.. رجال بسحنات مقلوبة.. المسلحون هم الوحيدون الذين كانوا يبتسمون ولا يهابون الموت.

حين كنت أجلس وحدي، وأراجع حساباتي.. كنت أشعر كمن غادر السجن بعد حكم مؤبد.. لكن شعوري بالحرية لم يدم طويلاً.. فكّرتُ بالحياة.. وتساءلت ماذا بعد هجْره!؟.. أين أذهب!.. مُنى لن تدوم لي، المستقبل ينتظرها، ولا بد أن تعود إلى جنوبها.. وأنا من يبقى لي في هذه الحياة غير شريف؟!.

شريف على علاته يُحبّني.. أعترف لي بذلك أكثر من مرة.. أعرف أنه يتعذب أكثر مني.. يمر بمرحلة إجهاض في حياته، ولا بُدّ أن يتحول نحو الأفضل.. أردت أن أختبر مشاعره.. اتصلت به هاتفياً.. أجابني من الجانب الآخر بتعال وغرور.. "أنا أتنفس الحرية بدونك".. أقفلت الخط في وجهه، ولعنت نفسي التي ما زالت تأمل فيه خيراً.

من جديد عدت أبحث عن عمل، لم أجد.. الرجال زمن الحرب وحوش، لا يعرفون الشرف، ولا يفرقون بين امرأة جميلة أو غير

جميلة.. كما لا يفرقون بين امرأة عفيفة وأخرى ساقطة.. وجدتُ نفسي منقادة وراء لقمة العيش.. إما أن أضحي بشرفي وأسقط إلى الحضيض أو أموت جوعاً.

دفعتني مُنى للالتحاق بالثورة، لم يكن أمامي خيار آخر.. تدرّبتُ على السلاح.. ساعدتُ الجرحى.. لكني تعبتُ أخيراً.. شعرتُ بتراخ في جسدي ومرضت.

لازمتُ سرير المستشفى أكثر من شهر، تمنيت خلاله الموت أكثر من مرة.. شعرت أن الجرحى أولى بسريري، خاصة وأن أعدادهم تزداد يوماً بعد آخر.. مُنى لم تعد تزورني، وانقطعت أخبارها منذ أكثر من أسبوعين، في الوقت الذي كنت بأمس الحاجة إليها.. ما أن تماثلتُ للشفاء حتى أسرعت أجر نفسي إلى بيتها، لم أجد له أثراً.. كان المهاجمون قد احتلوا المنطقة ونسفوا كل بيوتها، ومنعوني من الوصول إلى الحيّ الذي كنت أقيم فيه.. أظلمت الدنيا في وجهي.. سُدّت كل الطرق، وجدت نفسي مدفوعة إلى بيت شريف دفعاً، لكني لم أجده هناك أيضاً.

التعب هدني تماماً، صوت القذائف يدوّي، صوت الرشاشات يقترب ويبتعد عن المكان.. جلستُ قرب الباب أستريح.. وجدت نفسي أستلقي وأذهب في سبات نوم عميق.. عند الفجر استيقظت على ركلة من قدمه.. شاهدته يتأبط رشاشاً ويقف فوق رأسي.. قلت: "كنت بانتظارك"..

قال بصوت فظ: "أنا تعب وأريد النوم".. وحاول التقدم نحو الباب.. لا أدري كيف اندفعتُ خلفه، تمسكت بساقه.. ركلني بقدمه ثانية.. قلت "أرجوك".

فُتح باب جانبي.. عوى كلب، وظهرت امرأة تتلصّص.. نظر إليها وخجل من تصرفه.. فتح باب البيت ودخل، وقبل أن يغلق الباب دلفتُ خلفه.. رأيت في عينيه الغرور يكبر ويطغى.. تجاهلت تعاليه وقلت: "أرجوك، لا تطردني.. أنا مستعدة أن أعيش معك بأي شرط وتحت أي ظرف.. أنا آسفة".
كان صخراً ولم يجب.. بكيت بحرقة.. أضفت: "يمكنك أن تضربني.. تقتلني.. لا أبالي بما تفعله معي، لكن لا تطردني.. أرجوك لا تقل أنك لا تحبني.. أرجوك وأتوسّل إليك"..

مثل تمثال لا حياة فيه كان شريف يقف شامخاً، يتفرّج على مشهد من مسرحية تدور أمامه، لا علاقة له بها.. مدّ يده إلى جيبه، تناول علبة الدخان، سحب سيجارة، أشعلها، نفث دخانها بخط مستقيم نحوي.. كنت منهارة تماماً.. سقطتُ على الأرض عند قدميه.. أحسستُ أن لديه شعوراً بالسادية.. يحاول إذلالي بأية طريقة، لكنه لم ينطق بحرف، بقي ساكناً سكون الأموات وهو ينفث دخان سيجارته.. فجأة أبتسم في وجهي، وقال: "في غيابك كنت أتمزق مثلك الآن".. شعرت أنه يحس بي، ولم ينسني أبداً..

قلت في نفسي: "آه كم كنت غبية حين رحلت عنه!".. أضاف: "هيا أنهضي واغتسلي".

ليلة جديدة من ليالي ألف ليلة وليلة، شعرت فيها أني عروس من جديد.. نام في سريري.. طوّقني بذراعيه.. تجوّلتُ في عنان السماء والسحاب معه، طفنا السماوات السبع.. لكنه خذلني في اللحظة الأخيرة عندما قال: "بحبك يا سعاد".

كدت أصرخ في وجهه، وأسأله إذا كان له علاقة بواحدة غيري!.. إلا أنه كان يغط في نوم عميق.. ورغم أن النوم جافاني تلك الليلة، إلا أني لم أسأله شيئاً فيما بعد، وتناسيت كل ما حدث.

على وتيرة واحدة توالت الأيام.. لكني شعرت أن عالم السلاح بدأ يشده من أعماقه، ويأخذه مني، وعندما يعود للبيت، كان ينام قربي صامتاً.. وقليلاً ما كان يحدثني عن نفسه، وعن أحلامه المهشّمة.. وبدوري جعلتُ من نفسي خادمة مطيعة له، وبذلت كل جهدي لأجعله يشعر بالسعادة.. ذكرته يوماً بتاريخ زواجنا، فقال هازئاً: "إذن ما زلتِ تحتفظين بذاكرة قوية.. كدت أنسى ذلك اليوم المشؤوم".

في الصباح قام نشيطاً على غير عادته، غسل وجهه بالصابون وغادر البيت.. وعند الظهيرة عاد حاملا مجموعة من الأطباق المليئة بالمأكولات الشهية والحلويات، والبسمة لا تفارق شفتيه، قال:

- دعوت مجموعة من الأصدقاء بمناسبة عيد زواجنا.. أرجو ألا تخذليني في تحضير الطعام وتقديم الحلويات.

فرحتي طغت على كل أحزان العالم.. رقصت من شدة الفرح، وتمنيت أن لا يحرمني الله منه لأعطيه كل ما أملك من سعادة.

عند المساء عاد مع لفيف من زملائه.. رحبت بهم جميعاً، وأسرعت بتقديم المشروبات، لكني شعرت أن شريف يتجاهل وجودي ويعاملني كنادلة، بينما كان يراقص واحدة أخرى، ويترع الكأس بعد الآخر.. أشارت إحدى المدعوات نحوي وقالت:
- ما أجمل تسريحتك يا أحلام.

كان الجميع ثملين.. شريف كان يقف وفي يده كأس فارغة، قال: "تصوري يا أحلام.. سعاد معجبة بتسريحة شعرك"..

رغم الصدمة التي أصبتُ بها عندما لفظ أسم سعاد، إلا أني شعرت بالتيه والإعجاب، لكن سعاد لم تعطني فرصة الإجابة.. ضحكتْ باستهزاء وقالت: "إنها تشبه عرف الديك"..

بسخرية ضحك الجميع.. شعرتُ بإهانة واحتقار داخل بيتي.. ألقيت بما بين يدي في وجوههم.. شريف هو الوحيد الذي عبس بينهم.. ثم ضحك وقال: "لكن شعرها جميل خاصة بعد أن قصته.. إنه ناعم، ويذكرني ب لوسي".

سألتْ سعاد ثانية: "من هي لوسي يا شريف؟"

قال وهو يضحك بصوت عال: "إنها كلبة الجيران".

توالت ضحكات الاستهزاء.. أحسستُ بوجهي يتغير.. غاصت دمائي إلى الداخل.. تغيّر لوني.. درتُ على نفسي وأنا أنظر في وجوههم.. تمنيت الموت لهم جميعاً.. وتمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني، أو اختفي عن هذا العالم.

شريف لم يكن شريفاً تلك الليلة.. تابع وضيوفه الاستهزاء، سمعت ضحكاتهم تعلو وتتواصل، أصابني الفزع.. غمرني إحساس عجيب بالانقضاض عليهم، لكني لم أستطع.. بدوتُ كذبابة بينهم.. تراجعت إلى الخلف أبحث عن مخرج.. اختفيت خلف الباب.. في الحمام بدأت أتقيأ.. أحسستُ أن الله ما خلق شريف إلا لأذيتي وإذلالي.

عندما خرجتُ إلى الصالة كان الجميع قد غادروا البيت، وشريف ما زال يترع كؤوس السم واحداً بعد الآخر.. تركته وانزويت في غرفتي.. تألمت كثيراً، وبكيت.. وعند الصباح كان شريف قد نسي كل ما حدث.

بعد أسابيع عدة، وبينما كنت أجهّز العشاء، خامرني شعور غريب بالخوف.. تهاوت قدماي وكدت أسقط على الأرض.. كانت رائحة الطعام كالجيفة المتعفنة، أسرعت إلى الحمام، تقيأت، وحين هدأت نفسي عرفت بشعور المرأة وإحساسها أني حبلى.

مرت أيام عصيبة، ولم أخبر شريف عن حملي.. كنت أشعر أنه يختلق المشاجرات لأتفه الأسباب حتى أفارقه.. لكن حرصي

علـى الجنـين دفعنـي إلـى الاستكانة والصبر علـى أفعالـه.. كنـت أشغل نفسي بتنظيف البيت طيلة النهار حتى أقتل وحدتي.. وحين أفرغ من عملي، أعود إلى سريري، أتألم وحدي وأنام.

بـدأت أتعـود الوحـدة، ورافقنـي الصـمت طيلـة أشـهر الحمـل التالية.. فاجأني مرة وأنا على السرير أتألم.. سألني عمّا بي؟.. لم أستطع الصمت هذه المرة.. بكيت.. سألني ثانية: "لماذا تبكين!".. تكورت على نفسي، وضعت رأسي بين يديّ، وشعرت أن بـي طاقـة إذاعـة للكـلام.. سـأنفجر إن بقيـت صـامته.. قلـت: "أنتظـر مولوداً".

شعرت أنّ عصاً غليظة وقعت على رأس شريف فجأة.. ذُهل تماماً.. وقف مشدوهاً وقال: "ماذا قلتِ؟!".

كانـت القذيفـة قـد انطلقـت، ولا مجـال للتراجـع.. قلـت: "مـا سمعت"..

قال: "تنتظرين مولوداً.. يعني سنرزق بطفل مرة أخرى.. يا إلهـي.. بـدأ العـذاب يطـرق بـابي مـن جديـد.. منـذ متـى وأنـت تعلمين!؟".

كذبت عليه، قلت: "قبل شهر.. ثلاثة أشهر قال الطبيب".

- وهل زرتِ الطبيب أيضاً دون علمي؟.

صرختُ في وجهه: "أنت لا تهتم بي"..

قال محاولاً تهدئة ثورتي: "أجل، أجل.. ماذا ستفعلين به؟!".

لم أتوقع هذا السؤال، تفاجأت.. قلت: "ماذا أفعل به!"..

رفع يده تجاهي محذراً وقال: "انظري إليّ جيداً.. هل أبدو لك مثل والد لطفل!.. أتعتقدين من السهل تربية طفل في الحرب القذرة!.. نحن معرضون للموت في أية لحظة.. العالم لا يعترف بوجودنا.. نحن حشرات ندب على الأرض.. يا إلهي.. أعتقد أنه من الأفضل لي أن أنتحر، وأنتهي من هذا العالم".. وقدحت عيناه شهباً حمراء.. بدا لونهما أقرب إلى لون الدماء.. أضاف: "هل من العدل انجاب طفل من زوج مثلي، الموت له أقرب من الحياة!".

لم أجب، كنت أتألم من الأعماق، وأشفق عليه من نفسه.. أضاف: "لنكن صريحين مع بعضنا البعض..".

فجأة وجدت نفسي أبكي على صدره.. قطعتُ استرساله، ولم أتركه يتمادى أكثر من ذلك.. صمت ولم ينطق بكلمة واحدة.

الأيام التي تلت إعلان نبأ الحمل كانت قاسية جداً.. تعقّدت الأمور بشكل لا يطاق.. اضطربت نفسيتي، ولازمت فراش المرض، لكن شريف لم يكن مستعداً لتقبل الأمر الواقع، واستقبال مولوده الجديد.. في ليلة تالية، وبينما كان القصف على أشده في الخارج، انهالت مجموعة من القذائف على المبنى الذي نقيم فيه.. فطُلب من السكان النزول إلى الملاجئ، تراكض الجميع بفوضى عارمة.. دفعني أحدهم.. تعثّرتُ وسقطت على سلالم الدرج في الظلام.. شعرتُ أن شيئاً ما انفجر في أحشائي.. تدفق الدم إلى الخارج.. سقط جريح قربي.. اختلطت الدماء، وذاب صراخي

بين أصوات المذعورين.. شعرتُ بـألم شـديد، وغامت الـدنيا أمـام عينـيّ.. كان كل شـيء قد انتهى، وتبددت أحلام الحمل.

***

٥

تسارعت الأمور والأحداث، وتواردت الأخبار بأن قوات جيش الاحتلال اجتازت حدود الوطن متجهة نحو الشمال، لاجتياح مخيمات اللاجئين وسحق المقاومة.. الاجتياح كان عاماً طاماً.. ولم أعد أعرف عن شريف شيئاً بعد أن التحق بالقوات المدافعة عن المخيم.. وبدوري التحقتُ كممرضة في مستشفى القدس القريب من المخيم.

اندلع القتال في الضواحي الجنوبية للمخيم أيضاً.. صمد المدافعون عنه ودمروا عدداً من دبابات العدو المتقدمة.. لكن العدو طوق المخيم.. حاصروه من كل الجهات وبدأوا يقصفونه بالمدفعية الثقيلة.. البنايات المجاورة للمخيم بدأت تحت شدة القصف تحترق وتتهاوى على من فيها، والجرافات قامت بفتح منافذ عبر المخيم الذي بدت سماؤه كتلة من اللهب والدخان..

مدينة بيروت أصبحت مدينة أشباح حقيقيين لا حياة فيها، والناس يفرون من الموت إلى الموت.. يودّعون بعضهم في الأزقة وفي الملاجئ وتحت الأنقاض.. الضاحية الجنوبية من بيروت بدت مثل كتلة نار ملتهبة.. القذائف تسقط بغزارة، والقنابل الفسفورية تحيل الليل إلى نهار ساطع.. سقط أحد المقاتلين بعد إصابته إصابة مباشرة، وهو يحاول رفع العلم

الفلسطيني على كومة حجارة بناية تهدمت بعد أن أصيبت بصاروخ فراغي.

الجرحى ملأوا المستشفيات، أخذ الأطفال والنساء والشيوخ يتكوّمون في الملاجئ بلا ماء ولا كهرباء أو طعام..

المدنيون كانوا يتراكضون، يتّقون الرصاص بأيديهم المشدودة على رؤوسهم.. سيارات الإسعاف تجوب الشوارع معلنة عن سخطها بأبواقها، والمفقودون ناف عددهم عدد الجثث المتناثرة.

العالم المتحضر بدأ يحتضر وسط أطلال المخيم، وأنا أدور فَزِعة بين الجثث، أحاول مساعدة الجرحى.. جفّت الدموع، ولم يعد أحد يبكي موتاه.. وأخذت مجموعة على عاتقها حفر الأرض تمهيداً لتحضير قبور جماعية..

هرولت امرأة باتجاه المستشفى تحتضن وليدها الجريح، وتضمه إلى صدرها، كأنها تغرسه بين ضلوعها، نيران الحرائق حولت الليل إلى نهار، والمهاجمون يعلنون بصراحة متناهية أنهم يريدون تصفية المقاومة ونزع سلاحها.

المدينة كلها أصبحت بلا ماء أو كهرباء أو وقود أو طعام، تاه الأطفال في الشوارع يجمعون قطع السلاح المتناثر، وطلقات الرصاص الفارغة بدل كسرات الخبز.. في زمن الحرب أصبح الأطفال حملة نعوش، بينما كانوا أيام السلم حملة شموع في

الأفراح.. دُمّرت المدارس والمشافي، المخيم أنقلب رأساً على عقب، وبدأ يحترق على من فيه.. استمر القتال أكثر من ثمانين يوماً.. سقط المئات من المقاتلين.. لكن المخيم لم يسقط، استعصى على الغزاة كما استعصى سور عكا على نابليون ولم تستسلم القوات المدافعة.. صمد المقاتلون وتجمعوا معلنين للملأ أن الغزاة لن يتقدموا إلا على جثثهم.. مما أدى إلى عقد اتفاقية هدنة بينهم، تقضي بأن ينسحب المقاتلون من المخيمات ومن لبنان أيضاً، ثم نقلهم إلى دول مجاورة وأخرى بعيدة.. على أن يبقى المدنيون تحت حماية القوات الدولية.

وافق المقاتلون على وقف أطلاق النار والانسحاب من المخيمات على مضض، حماية للنساء والأطفال والشيوخ من التدمير الشامل.

رغم الألم الذي كنت أعيشه وأنا أبحث عن شريف بين الجرحى وبين جثث الشهداء، إلا أني كنت أرى كل المقاتلين الأحياء في شريف.. استبعدتُ عنه الموت بعيداً عندما تمنيتُ أن يكون مع الراحلين.. ومع ذلك فقدتُ كل أثر له، ولم أجد له خبراً في أي مكان.

بيروت، المدينة الثكلى بدأت تستقبل السفن الوافدة لنقل المقاتلين.. تمّ تجميع الجرحى أيضاً من المستشفيات تمهيداً لنقلهم على ظهر سفينة أخرى لعلاجهم في الخارج.. اصطخبت الحشود المودعة، ونثرت الأرز فوق رؤوس المقاتلين وهم ينسحبون نحو

الميناء، سالت الدموع بسخاء من عيون الأحبة الذين تفرقوا وتباعدوا عنوة.. وانطلقت الطلقات الرشاشة معلنة وداع المقاتلين وهم يمتطون السفن المغادرة.

وحيدة كنت أقف أرقب الراحلين طوال النهار، لكن ضالتي لم تكن بينهم.. عند المساء عدت مع الجموع المودعة مكسورة الفؤاد مملوءة بالأحزان والخذلان إلى أشلاء المخيم.

***

٦

لم تنقضِ غير أيام قليلة على رحيل المقاتلين، فوجئنا بعدها بتطويق المخيم من جديد بحجة أن بعض المقاتلين ما زالوا فيه.. في هداة الليل بدأت عملية اقتحام المخيم.. نثروه، بعثروه، مزّقوه.. قتلوا كل من وجدوه على قيد الحياة من شيوخ وأطفال ونساء.. دمروه، أحرقوه.. ذبحوا كل حياة فيه، وأنا غارقة في تضميد الجراح في مستشفى القدس القريب من المخيم.. كانت أصوات الطلقات تصل إلى أسماعنا بين لحظة وأخرى متقطعة ومتواصلة، ثم يعلو صوت الرشاشات ونحن واثقون أنه لم يعد هناك مقاومة تُذكر في المخيم.. وفي اليوم التالي منعوا التجوال في المخيم بحجة استمرارية البحث عن بقايا المقاتلين.

صباح اليوم الثالث اندفع من تبقّى على قيد الحياة متسللاً إلى خارج مخيم شاتيلا، ليعلن عن المأساة الجديدة في حق المدنيين العُزّل.. وحين ذاع الخبر بين المقيمين على أطراف المخيم، اندفعوا إلى وسطه، وشاهدوا المذبحة التي لم يُرتكب مثلها في تاريخ البشرية.

الجثث بدت متعفنة من حرارة الشمس، ورائحتها تثير الخوف والرعب في النفوس.. كان هناك امرأة تصرخ، تركض وتبحث عن زوجها.. لحقت بها عجوز تحمل صورة ابنها، وأخذت تقلب الجثث المتناثرة لعلها تجد جثته بينها، وهي تولول بأعلى صوتها..

المخيم بدا كومة من الحطام، بعد أن غيّب الموت ساكنيه.. أخفيت عينيّ براحتيّ حين شاهدت ثلاثة أشخاص مقيدين بالسلاسل، وقد شُقّت بطونهم.. بدأت أتقيأ.. كنت أبحث عن شريف بينهم.. أحدهم يرتدي قميصاً أزرق وقد اسند رأسه على قتيل آخر كسرت يده.. جثث متعفنة ملقاة هنا وهناك والذباب يتطاير حولها.

الدموع تحجّرت في عينيّ، أخذتُ أترنح وأنا ابحث عن أملي المفقود.. جثة أخرى مقيدة بالسلاسل بلا رأس، بلطة مغروسة في ظهر جثة مجاورة، وثالثة بلا ذراع تُنقل على عربة يجرها رجل مسن.. بطن الأرض أرحم من ظهرها.. أنشق بطن الأرض، وبدأت الجثث المتعفنة تتوارى في قبور جماعية، تدفنها الجرافات، دون أن يتعرف عليها أحد.

الألم كان ينخر النساء حتى العظم.. يبكين، يتألمن بكل ما للكلمة من معنى.. فقدن الإحساس بالألم.. فقدن عقولهن وهن يجمعن أوصال الأحبة المقطعة والمتناثرة هنا وهناك.. في مستشفى القدس الذي كنت أعمل فيه كانت الممرضات يعملن على مدار الساعة بلا كلل.. لكن الغزاة فاجأونا في الليلة الرابعة باقتحام المستشفى بحجة تطهيره من أنصار المقاتلين.

قتلوا عدداً من الأطباء.. مثّلوا بالجرحى.. اغتصبوا ممرضة.. مشطوا العنابر، وفتشوا كل البيوت المجاورة.. اعتقلوا كل الأحياء

وجمعوهم في طوابير قرب المدينة الرياضية.. ثم احرقوا المستشفى.

صباح اليوم التالي وجدوا بعض جثث الممرضات في مبنى مجاور وقد جُرّدن من ملابسهن، هتك أحدهم عرض فتاة على مرأى من عيون الناس ثم قتلها.. قتلوا المسالمين وقطعت أوصالهم.. البقية من الأحياء حاولت الهرب أمام القتل الجماعي.. وكنت الوحيدة التي تتمنى الموت وتندفع إليه، لكنه كان يهرب مني ويغادرني بجبن.. استسلمتُ لقدري في الحياة، وهربتُ مع الهاربين طلباً للنجاة.

القنابل وضعوها تحت جثث القتلى بحيث تنفجر لدى رفعها، لقتل المزيد من الأبرياء.. جثث مهشمة.. سُمِلت عيون البعض وبُقرت بطون البعض الآخر.. لم ينج أحد.. كانت مفارز جيش المهاجمين تُطوّق المخيم، توقف المارة، وتُدقّق في هوياتهم ثم تقتلهم.. اقتادوا أحدهم إلى جانب الطريق وهو يصرخ.. أسكتوا صراخه بطلقة.. تراجع الجميع، ولاذ الباقون في طرق فرعية يتصيّدهم الموت بطرق أخرى..

الرصاص لاحق المجموعات التائهة، سقط بعضهم.. تعثر برصاصة، ونجا من كان له حظ في الحياة، أو كان على موعد جديد مع شقاء في هذه الدنيا.

من بعيد ظهرت امرأة تصرخ وتلوح بمنديل أبيض بين يديها.. تولول: "كلاب.. العرب كلاب.. اليهود كلاب.. الأميركان

كلاب.. الناس كلاب".. وأخرى تهيل التراب على رأسها وتندب حظها بولدها المقتول، بينما تتمدد جثته أمامها.. وثالثة تلوح بصور أولادها المفقودين وتتنقل هنا وهناك تبحث عنهم.. عشرات الجثث مكومة في كومة واحدة، ورجال الإسعاف يرفعونها بالبطانيات والستائر، وهم يسدون أنوفهم من أثر رائحة التعفن.

عجوز يجلس تحت وهج الشمس ينظر حوله باستغراب وكأنه فقد وعيه ويتألم.. وامرأة تمسح دموعهابمنديل أبيض بين لحظة وأخرى وتتساءل.. "زوجي مفقود ولا أعرف إذا كان حياً أو ميتاً.. عنده تسعة أولاد.. من ثلاثة أيام وأنا أبحث عنه.. مش عم ألاقيه".. تصمت، تنشج، تنظر إلى المارة بعينين زائغتين، تُنقّل نظرها بين الجثث، تضيف : "الله يجازيهم العرب.. وين بدّي أروح أسأل.. كيف بدّي حاكيهم.. دول ما عم يفهموا عليّ".. تتساءل أخرى وهي تتفحص القتلى.. ترثي لحالهم وتسد أنفها بمنديل "يا ويلي ع البني أدمين.. وين حقهم في الحياة ؟!".

لم يعد للأصوات آذان صاغية.. كان الجميع يعانون سكرات الموت.. مُنى صديقتي كانت حبل النجاة الأخير، حين التقيت بها وسط دوامة الموت والضياع.. قالت إنها تبحث عني، وتقيم عند صديقة لها.. حلقي كان جافاً كبئر نضب ماؤها عندما وصلتُ بيتها.. ألقيت بجسدي على الأرض، وغبت عن عالمي أرتب لحظات عمري المفقودة، أمام كابوس الموت الذي يطارد الأحياء.

***

توالت الأيام العصيبة.. تواصل عملي كممرضة، ورغم انشغالي دائماً، إلا أني كنت أعاني من الشعور بالعزلة.. في أعماقي كنت أرفض الواقع المؤلم، لأحتفظ ببقايا حب كنت أتصوره دائماً في أيامه الأولى.

كثيراً ما كنت أحلم وأعيش على ذكرى علاقة قديمة.. ذكرى وَهَم، اعتقدت يوماً أنه حب حقيقي.. اكتشفتُ حقاً أني أحب شريف بجنون، بطفولة وحماقة.. معه تناسيت الأهل والوطن والغربة والنفي والثورة والهدوء والحرب، وكل شيء في الحياة.. اكتشفت أن بي رغبة وشوقاً إليه.. شعرتُ أني أحن إليه بكل ما في أعماقي من عجز وضعف، وأن لا خلاص لي من حبه حتى لو كان مقتولاً أو مسجوناً أو مفقوداً.. لكني استبعدت كثيراً عنه الموت بأشكاله المتعددة.. وطردت هذه الأفكار بعيداً حين تمنيت له الحياة فقط.

لم أجد لشريف أثراً بعد الاجتياح.

مُنى تخرّجت في الجامعة ولم تعد إلى الجنوب.. تزوجت من شاب عربي مغترب، وغادرت البلاد لتقيم معه حيث يقيم.. وبقيت أعيش السنوات العجاف التي تلت الكابوس مع رفيقتي "ندى"،

التي كانت تعمل ممرضة هي الأخرى بنفس المستشفى.. معاً كنا نغرس الأمل، ولا نقطف غير التعب والهموم.

***

"بعد مرور أكثر من عشرة أعوام"

شريف

١

رتيبة توالت الأيام في عدن، محطتي الجديدة، حيث رست سفينة النجاة.. فقدتُ أحلامي في بيروت، ووجدتُ نفسي منقاداً مع رجال السياسة، مرافقاً لأحد الشخصيات القيادية، ومندفعاً وراء تيار السلام.

سنوات اللاحرب واللاسلم التي تلت حرب التصفية والتشتت بدت طويلة كالقرون.. تعوّدنا الهدوء والسكينة، وطوت الخزائن الحديدية المحكمة الأقفال أسلحتنا، تصدأ وتهترئ في داخلها.

في غربتي الجديدة تزوجت من امرأة عربية هرباً من الموت البطيء الذي كنت أعيشه.. أحلام أصبحت ذكرى بعيدة.. فصل مقفل.. ومع ذلك لم تستطع زوجتي الجديدة غير الحصول على جسدي.. أما روحي، فطالما كانت تحوم على تخوم الفردوس المفقود حول عرش أحلامي، التي طواها الزمن في داخل أعماقي.

كثيراً ما كانت الذكريات مع أحلام تتشح بالغموض، أحلام ضبابية يغلب عليها اللون الرمادي.. كانت شخوصها مختلطة

الألوان.. صوراً منحنية بجلال مأساوي.. حلم واحد كان يقلق منامي وصحوي.. على مدى سنوات وهو يلازمني مثل كابوس.. تابوت يجثم في منتصف غرفة نومي، وفي الخارج كانت ظلمة ما قبل الفجر تستحيل ظلالاً مع زرقة عميقة.

امرأة في مقتبل عمرها تتشبث بالتابوت وقد أنسدل شعرها الأشقر من رأسها المنكّس.. وأثناء موجات انخراطها في البكاء، كانت تحاول التطلع إلى محياها، لكني لم أستطع أن أميز أكثر من جبينها الشاحب.. وبدلاً من البخور الجنائزي، كان يملأ الغرفة عبق أحلام الخالد.. وعلى نحو مطلق كنت عاجزاً في كل مرة عن مساعدتها وهي تصرخ وتتألم، وتحاول الخروج من التابوت.

خلال تلك السنوات العجاف التي قضيتها في بيروت.. لم أكن أفهم الدنيا، كما لم أكن افهم أحلام.. كنت أنظر إليها من الخارج فقط، ولم أحاول أن أصل إلى أعماق حبها لو مرة واحدة، لأفهم طبيعتها.. كنت مثل المرء الذي لا يرى أبعد من السائل الأحمر القاتم المتوهج داخل زجاجة نبيذ.. ولم يخطر بباله أن يتذوّقه لو مرة واحدة، ليتبيّن مذاقه وطعمه.

حين توقفتُ ذات صباح أتذوق طعم الدنيا.. أدركتُ أن مذاقها قد تغير على نحو مراوغ.. ولم يكن لي خبرة التذوق لأميز الفرق بين النبيذ المعتق والنبيذ المصنوع حديثاً.. عند ذلك عرفت أني بلا أحلام لا أعرف مذاقاً للدنيا التي أعيشها.. أحلام كانت لا تهتم بالجنس، لا تمتحنه ولا تتحداه.. لكني علّمتها كيف تكون أنثى

بمعنى الكلمة، فحاولت العطـاء.. أعطتنـي ولـم تأخذ منـي.. كانـت ترضــى بالقليـل، وجسـدها الحنـون يتقبـل حبــي بترحــاب، لكنــي رفستُ النعمة التي كنت أمتلكها، وركضتُ خلف السراب.

طالت أيام العذاب في الغربة.. ومع ذلك لا زال وجه أحلام في ذاكرتـي وميضـاً يحمـل آلاف الأسرار، وطيفهـا ينبثـق عـن آلاف المسامات العذبة.

أتت الفصول ورحلت، أنجبت زوجتي خلالها ولـدين.. وأحـلام تأتيني في أحلامي كل ليلة من العدم.. أحمل تابوتهـا علـى كـاهلي وأتنقل به أينما ذهبت وحيثما حللت.

سـجيناً كنـت فـي غربتـي.. لـم أفـارق منفـاي لأكثـر مـن عشـرة أعـوام.. كـان ممنوعـاً علينـا الرحيـل والترحـال.. الإقامـة الجبريـة بدت كزنزانة كبيرة على المقاتلين، وهم ينتظرون بفـارغ الصـبر بزوغ الفجر، وحلم العودة إلى الوطن.

مـع كـل الإرهاصـات التـي مـررتُ بهـا، لـم أتخـل عـن أحـلام.. بحثت عنها بكل الوسائل.. أحصيت من تبقى على قيد الحيـاة فـي المخيمـات، ومـن غادرهـا إلـى الـبلاد العربيـة.. لكنـي لـم أجـد لهـا أثـراً.. وهـذا مـا كـان يحزننـي، ويجعلنـي أجتـر الحـزن وأتجـرع الألم.. ألوذ كمالك الحزين عند زوجتـي.. كنـت أتـألم وأشـعر أنـي غريـب فــي بيتــي، أحمـل العـذاب فــي كـل مسـاماتي وأغـذي بــه عائلتي.. وضميري لم يعد يرحمني.

كثيراً ما كنت أتذكر طفولتي.. أرحل إليها وأعيشها.. اذكر أنه كان لي قطتان.. وكنت أحب واحدة أكثر من الأخرى، ولا أدري لهذا الوقت لِمَ ضاعت قطتي الهادئة المفضلة.. وبقيت لي القطة المشاكسة**!.**

مع مرور الأيام أصبحتُ أهرب من الواقع المؤلم، لأعيش لحظة نسيان مع كأس شيطاني.. أصبحتُ مثل دراكولا.. أنهض عند الغسق وأخلد إلى مهجعي عند الفجر.. كانت زوجتي تتألم هي الأخرى في الليل.. تلوذ إلى الفراش بصمت.. تنخرط في البكاء بعد أن تغلق على نفسها الباب، ولم أعرف الوحدة والألم الذي كانت تعاني منهما إلا عندما سمعتها تتحدث ذات ليلة مع إحدى جاراتها أثناء انزوائي في الغرفة المجاورة..

لم أنم تلك الليلة وأنا أتنصت لما تقول وما يخالجها من شعور نحوي.. قالت بما معناه أنها تعيش سنوات عصيبة مع زوجها، وهي تراه يتهاوى يوماً بعد آخر.. أضافت: "شريف تزوجني وأنا لا أعرف إلا القليل عن ماضيه.. قليلاً ما حدثني عن نفسه، لكني أشعر إنه اقترف إثماً كبيراً في حياته.. وإلا فما باله يتمنى الموت دائماً، ويفكر بإطلاق الرصاص على رأسه.. كأن جسده أصبح جرحاً متقيحاً.. شريف دائماً يتألم أثناء نومه، وأثناء صحوه.. أسمعه يتحدث عن امرأة في حياته، يقول إنها أحلامه المفقودة.. أشعر أنه أصبح غريباً معي ومع أولاده، رغم هذه السنوات التي

مرت على حياته الزوجية.. دائماً يغادرنا مع أفكاره.. ودائماً تأتيه أفكار جنونية على غير موعد، ودون سابق إنذار.

هذا الرجل ضائع.. يبحث عن شيء مفقود.. ينتظر حلماً لن يتحقق.. إنه لم يؤمن يوماً بهذه البلاد.. يشعر أنه غريب ويعيش في وهم، في ظل خيانة تلاحقه.. يشعر أن العرب كل العرب خانوا قضيته.. هدموا كل أمانيه وأحلامه.. لم يعد بمقدوره سوى أن يصبّ اللعنات ويتلفظ بالشتائم.. إنسان غريب حقاً.. نسي أن له بيتاً وزوجة وأولاد، وأن لهم عليه حقوق.. ولم يعد يتذكر إلا كؤوسه الشيطانية وهو يتمادى في الشراب.. في النسيان يكون صادقاً مع نفسه، ويشعر أنه يحقق شيئاً".

بعد أن سمعت ما قالته زوجتي لجارتها، شعرتُ أنها كانت ترصد كل حركاتي وتحركاتي.. ومع أني حاولتُ أن أصنع ابتسامه في البيت، إلا أني لم أستطع.. وجدت نفسي مقهوراً أعاني حدة الفراغ الذي أعيشه، وكأني ضائع في صحراء ليس لها نهاية.

أشغلتُ وقتي مع رجال السياسة في انتظار ما تُسفر عنه نتائج مفاوضات السلام، التي بدأت ولم تنته، مع دولة الاحتلال.

تلك الفترة كنت ناقماً على الجميع، والجميع ناقمون على أنفسهم، حتى أصبحوا كالقطيع الذي يُساق إلى المسلخ، وكل ينتظر دوره بفارغ الصبر وبلا تذمر.. بات الجميع يستأنسون

الموت ويفضلونه على الحياة في ظل التسابق لخدمة العدو، والتفاني في سبيل الوصول إلى أقدام الجندي العالمي المغوار، الذي اخذ ينعشهم بالوعود والدولارات في ظل النظام العالمي الجديد.

***

٢

بعد مفاوضات سرية وعلنية طالت، وصلتنا الأوامر بالتجمع في المعسكر استعداداً للرحيل والعودة إلى الوطن، ومع أن الأوامر كانت صريحة وواضحة، إلا أن ذلك بدا لي ضرباً من المستحيل.. ومع ذلك لم أخفِ فرحتي، عدت إلى البيت منتشياً أزف لزوجتي خبر العودة إلى فلسطين.. ابتسمتْ ولم تصدق، وعندما أكدّتُ لها الخبر، شعرتُ أن لها جناحين وهي تجمع الأغراض في الحقائب.

لم ننم تلك الليلة.. ودّعنا الجيران كلهم.. وتمنوا لنا عودة ميمونة إلى الوطن.

***

في السيارة التي تقلنا إلى المطار، سرحت قليلاً مع الغربة التي طالت، احتضنتُ ولديّ وقبلتهما.. شعرت أن الله عوّضني بهما عن أحلام.. وفي ذاكرتي تراءى لي أني سبقتُ كل العائدين إلى المسجد الأقصى.. تراءى لي جموع المصلين وهم يركعون ويسجدون.. كنت بينهم ساجداً حين توقفت السيارة فجأة.. كانت سيارة عسكرية تتوقف في عرض الشارع وتقطع الطريق.. أمرنا الجنود بالنزول والوقوف جانباً.. كانت أرتال من الدبابات

المصفحة تجتاز طريق جانبي، مما سبب في تعطيل حركة المرور.. قال السائق: "ربنا يسترنا هذا اليوم".

تواصلت الحشود بين المعسكرين الشمالي والجنوبي في اليمن.. ولم يخطر ببالي أبداً أن أخوة الدم والسلاح سيجهضون بعضهم البعض.. تناسيت التاريخ.. تناسيت الحروب المدمّرة التي باع فيها الحكام شعوبهم وبلادهم.. نسيت أن العرب أبيع من أخوان يوسف حين يتراءى لهم الدولار أو يلمع أمام أعينهم الذهب، أو كرسي السلطة.. فجأة ظهرت عدة طائرات تحوم فوق الدبابات وقطعت حبل أفكاري، ودون سابق إنذار انطلقت المدافع المضادة للطائرات، وراحت الطائرات تقصف المنطقة بحمم من النيران الملتهبة.. عشرات الدبابات تفحّمت خلال دقائق، تناثر الجنود في الجبال تطاردهم قذائف الجحيم، وأنا أحاول النجاة بزوجتي وولديّ من قذائف الموت العشوائية.

الطائرات تقصف كل شيء يتحرك.. صعدنا إلى السيارة وراح سائقها يسابق الريح في الصحراء على غير هدى.. صرخت زوجتي بأعلى صوتها واحتضنت ولديها، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم.. تفل السائق من فمه مادة صفراء وهو يلعن الطرفين.. المنطقة أصبحت جحيماً والشمس لم تبزغ بعد.. حرب المخيمات طواها الزمن في ذاكرتي.. لم أهاب الموت، لكني بدوت جباناً خائفاً من الموت ذلك الصباح.. كنت أرتجف حتى أخمص قدمي.. لذت بالفرار من الموت، حاولت تخطّيه، فكرت

بالحيـاة لأول مـرة.. فكـرت بـالأولاد لأول مـرة.. ولأول مـرة شـعرتُ بـالحنين والخـوف علـى غيـري أكثـر مـن نفسـي.. كنـت أناضل لأنقذهم من هذه المنطقة الملعونـة.. طوّقت زوجتي وولدي بـين ذراعـي، وطلبـت مـن السـائق أن يتخطـى المعركـة بأقصـى سرعة.. فتح السائق نافذة باب السيارة وتفل ثانية في الغبار وقال: "يا رجل أنا خائف على سيارتي أكثر منك على عائلتك".

قطع كلامه صوت انفجار كبير أمامنا.. الغبار ملأ المنطقة ولـم نعد نـرى الاتجـاه الـذي نريده.. دخـان الحرائق كـان الهـواء الـذي نتنفّسه.. الشمس بدأت تشق طريقها إلـى عنـان السماء مـن خلـف الجبال.. صرختُ فـي السـائق: "توقف، توقف".. لكـن السـائق لـم يتوقـف.. أرتطـم رأسـه فـي عجلـة القيـادة فجـأة.. اهتـزت السـيارة وتـأرجحت، ثم علت وهوت مرتطمة بدبابة تحترق.

كانت الجثث تتمزق، والأشـلاء تتطـاير، وأنـا ارتطـم بـالأرض فاقد الـوعي.. شـعرت أنـي فقدت جزءاً مـن جسـدي.. لـم أسـتطع الحركة.. تحسستُ ساقاي فلم أجد لهما أثراً.. أذكر أنـي صرخت.. أظلمت الدنيا في عيني، وعرفت أن الشمس لم تشرق ذلك اليوم.

***

٣

حين صحوت من غيبوبتي التي لا أعرف كم دامت.. وجدتُ نفسي في أحد مستشفيات الوطن.. وقد عرفتُ فيما بعد أنهم نقلوني إلى معسكر قريب.. ومن هناك تم نقلي مع قوات الثورة العائدة إلى الوطن بطائرات خاصة، قبل أن تشتد المعارك وتتأزم الأمور.

عرفتُ أيضاً فيما عرفت أني عدتُ بساق واحدة إلى الوطن، بعد أن فقدتُ زوجتي وولديّ مع السائق، أثناء قصف الطائرات للموقع الذي كنا نجتازه.

مثل مومياء لا حياة فيها، بقيتُ مستلقياً لعدة أسابيع في أحد مشافي الوطن، وحيداً أسترجع ذكرياتي وأجتر آلامها، كشريط سينمائي باللونين الأسود والأبيض فقط.

الوطن كان بالنسبة لي سرير مستشفى.. لم أعانق فيه حبيباً، ولم أقبّل ترابه كما حلمت.. لم أصلّ في المسجد الأقصى ولم أرَ زهوراً تتفتح.. فرحتي كانت باهتة وحزينة وماتت قبل أن أطأ ترابه.

في المستشفى طالت لحيتي.. تعودتُ النوم والاستسلام لأحزاني العميقة، وتمنيتُ مرات عديدة لو مت مع ولديّ وزوجتي قبل أن أعود إلى الوطن وحيداً مجروح الفؤاد.

***

ذات صـباح، بعـد أن بـدأتُ أتماثـل للشـفاء، ولجـت غرفتـي ممرضة تحمل بين يديها جهازاً لقياس الضغط مع ميزان حرارة طبي.. ألقت نظرة على ملفي ثم ألقمتنـي ميزان الحرارة قبل أن أنطق بحرف، ووقفت بجانبي تمسك معصمي وتعد النبضات التي أخـذت تتسـارع فجـأة.. كانـت الممرضـة ترتـدي بنطـالاً أبـيض وقميصاً بلون الثلج، وعلى رأسها منديلاً أبيض اللون تدلّت من تحته خصلة شعر بلون الذهب.

دار الزمن في رأسي دورة كاملة وأنا أتأمل وجهها.. ارتجفت يدها وهي تسحب ميزان الحرارة من فمي، وتشاغلت بكتابة ملاحظاتها على الملف الموجود على الطاولة قرب سريري.. نظرتْ إليّ ثانية وحدّقت في وجهي.. كانت لحيتي الطويلة قد غيّرت ملامح وجهي.. عادت وتمعّنت في الملف واسم المريض ثم اقتربت مني.. فجأة تجمّدت خطواتها وجفلت كمن يشاهد ثعباناً للمرة الأولى، وما لبثت أن عادت لطبيعتها ثانية.. حدّقت في وجهي وجعّدت جبينها وتظاهرت بالتركيز.. قالت:

- الحمد لله على سلامتك.. أرى أنك أصبحت عجوزاً.

تنفّسـتُ بعمـق وقلـت: "اللعنـة علـيّ، كيـف لـم أعرفـك منـذ اللحظةالأولى".

تغيّرت ملامح وتعابير وجهها.. عادت إلى صمتها، بدت شاحبة وحزينة.. تراجعتْ إلى الوراء واستعدت للخروج.. أضفت: "اعتقدتُ أن الموت فرّقنا".

أدارت وجهها نحوي وألقت بثقل نظراتها على وجهي، وقالت:

- على أية حال، أنا كنت ميتة منذ البداية.

ابتسمتُ لها في محاولة لتقصير المسافات بيننا، وقلت:

- ما زلتِ كعهدي بك عنيدة، جذابة ورائعة.

اصطنعت ابتسامة صفراء، لكنها لم تستطع إخفاء ملامح الحزن الذي بدا مرسوماً على بشرة وجهها، كما لم تستطع إخفاء حشرجة الصوت المخنوق الذي بدأ يقطر وجعاً مع الكلمات.. قالت في محاولة للصمود واللامبالاة: "أشعر فعلاً بالروعة وأنت ممدّد على السرير هنا".. وحاولت إخفاء الدمعة التي قفزت من عينيها عندما نظرت جانباً.. لكن دمعتي فضحت المخبوء في أعماقي، وكسرت كل موجات الحنين الذي تدفّق نحوها فجأة.. نظرت إليّ ثانية.. ارتبكت وقالت: "أنت تبكي!.. إني أرى في عينيك دموعاً".. وتناولت منديلاً ورقياً وقدّمته لي لأمسح دموعي.. قلت:

- شكراً.. اجلسي طالما أنت هنا.

جلست على السرير قربي، نظرت إلى وجهي، تمعّنت في عينيّ، ثم خفضت نظرها، ونظرت إلى باب الحجرة..شعرتُ وكأن أعماقي تتمزق، خسرتُ كل شيء، وللحظة فكّرت كيف لم

أستطع المحافظة على هذه الجوهرة الثمينة!، وهل من سبيل لاستعادتها!.. وإذا لم يكن، فماذا تعني لي حياتي!.. لا شيء، الموت أفضل من الحياة.. الانتحار نهاية لكل ما أعانيه من آلام.

- الحياة مثل إناء مليء بالمرارة، يرتشفه المرء جرعة بعد أخرى خلال حياته دون نهاية. قلت بصوت حزين.

قالت بصوت ينضح بالحزن: "تقصد حياة مَن يرافقك".

شعرتُ أني وأحلام نغوص في بحر جديد من التعاسة.. قلت محاولاً الخروج من آهات الماضي الذي بدأنا نغوص فيه:

- أين كنتِ طوال الوقت!.. لقد بحثتُ عنك كثيراً.
- أنت الذي تركتني وسط الحرائق والدمار.. تركتني وسط المذابح ورحت تبحث عني في بلاد أخرى.
- تباً لي.. ذاكرتي بدأت تخونني..
- مثل ضميرَك تماماً.

ران صمت قصير بيننا.. أدرك كل منا أن في مخزون الآخر مئات الكلمات المخنوقة.. تجاهلتُ ملاحظتها وقلت:

- كيف تدبّرتِ أمرِك!.

حاولتْ التملص من الإجابة.. وقفت وحاولت الانسحاب من الغرفة.. رجوتها أن تجلس ثانية.. قالت بصوت حزين وكلمات مقتضبة:

- تعلمتُ التمريض على أيدي الجرحى والمشوّهين في بيروت.. ثم عملت ممرضة في مستشفى القدس.. وهناك التقيت بطبيب ساعدني على اجتياز مرحلة الموت والدمار أثناء الحصار.. كان لطيفاً معي لدرجة أنه طلب مني الزواج..
- أحقاً ما تقولين!..
- أجل كان لطيفاً للغاية.. كاد يعيد لي ثقتي بالجنس البشري.
- كاد!..
- أجل حتى تذكّرتك.. وهذا ما جعلني أتردد.. وفي مساء أحد الأيام نصب له مسلّحون كميناً وذبحوه على باب المستشفى، كما تُذبح الشاة في المسلخ.

أشعرتني أحلام أني ما زلت نقمة في حياتها.. قلت أعتذر: "فعلاً، أنا لست إنساناً".. وبدأتُ بتوبيخ نفسي..

نظرت أحلام إلى الجانب الآخر، تحاشت لقاء نظراتنا وأنا أعيد شريط حياتنا إلى الوراء.. وقالت:

- على أية حال، أريد أن تبقى خارج حياتي.

أحسستُ بطلقات رشاش سريعة تخترق قلبي وأحشائي مع وقع كلماتها على مسامعي.. أضافت غير عابئة بمشاعري:

- أرى أنك فقدت سحرك.. أنت لم تعد تنفع لشيء.. كان يجب عليّ أن أعلم أنك لم ولن تتغيّر.. الوداع.

في قرارة نفسي تساءلتُ إذا كانت جادة فيما تقول!.. رجوتها أن تسمعني قبل أن تغادر.. وقفتْ.. قلت: "تأكدي أني لم أنساكِ يوماً".

- وهل تفكّر باستعادتي إلى حظيرتك!؟.
- أنتِ ما زلت زوجتي من الناحية الشرعية..

ضحكت باستهزاء وقالت: "إذن الوداع يا زوجي العزيز".. واتجهت نحو الباب، فتحته، توقفتْ لحظة، نظرتْ إليّ بشموخ واستعلاء.. عادت وأغلقت باب الغرفة من الداخل.. خطت خطوتين نحوي ومدّت يدها لتصافحني.. تحوّلت عينيها إلى عينيّ نمرة مفترسة وجائعة.. مددتُ يدي.. تصافحت الأيدي.. فجأة ضغطت على يدي وسحبتني إلى الأمام حتى كاد جذعي أن ينخلع.. تأوّهتُ وتألمت.. قالت:

- هل تذكر لوسي!؟. لم أجب.
- هل تذكرها أم لا!؟. سألت ثانية.

قلت والألم يعتصرني: "نعم أذكرها"..

فجأة جذبت يدي نحوها ثانية بقوة.. شعرتُ أني أطير عن السرير، وقعتُ على الأرض، تألمتُ كثيراً، كدت أغيب عن الوعي.. حدّقت في وجهي وأمسكت بشعري وجذبته بين أصابعها، وقالت: "هل تعتقد أني نسيت كلبة الجيران!، أم نسيت سعاد!، أم نسيت طردك لي في أنصاف الليالي أيام الحرب

والقتال، وفي ليالي البرد والصقيع!، أم نسيت ما فعلته بالجنين الذي كنت أحلم به وأتمناه!، أم نسيت اتهاماتك لي مع فارس وغيره!، أم نسيت إهاناتك وإذلالك وضربك لي!، أم نسيت أنك كنت تدفعني لأكون عاهرة!، أم، أم..!!".

غامت الدنيا في عيني.. لم أكن أتوقع أن أحلام تحمل كل هذا الحقد وهذه الكراهية لي.. تركتني وانسحبت في لحظة مفاجئة وهي تغالب دموعها التي قفزت من عينيها دون سابق إنذار.. ولساعات طويلة تراءت لي نظراتها تلاحقني بعد أن غادرتْ غرفتي، وحين كنت أغمض عينيّ وأهرب من نظراتها، كنت أراها تخترق بصري وتغوص في حواسي.. ترعبني وتشعرني بالألم الذي سبّبته لها في السنوات السابقة.. وطيلة الأيام التي تلت هذا اللقاء ظللتُ أرتجف عند رؤيتها أثناء ولوجها غرفتي، لكنها لم تحاول إيذائي ثانية، وظلت تقوم على خدمتي بإخلاص تام وكأنها لا تعرفني.. كنت مجرّد مريض على سرير في مستشفى.. وحين تماثلتُ للشفاء، ابتسمت للمرة الأولى، وقالت:

- أتعلم أني سأترك عملي وأتفرغ لك في البيت!.

فاجأتني بكلماتها، ولم أصدّق.. أضافت قبل أن أتساءل:

- سأكون ممرضتك الوحيدة حتى بقية عمرك.. أنت أصبحتَ عاجزاً، وأنا كزوجة يجب أن أعتني بك.

كلماتها أوحت لي بخوف وحذر منها.. شعرتُ أنها تحاول الانتقام من ماضيها الذي لم تستطع التخلص منه.. قتلت فرحة

اللقاء في مهدها على سرير المستشفى.. شعرتُ أنها تحاول إذلالي، وأنا عاجز لا أستطيع الرفض.. أحسستُ أن الله ما زال يعاقبني على فعلتي معها.. في البداية كانت زوجتي في الغربة وولداي، واليوم ساقي وأحلامي.. تمنيتُ لو متُّ في الحادث ولم أرَ الوطن..الوطن كان صغيراً وكالحاً.. الوطن أصبح قبراً، وعدت إليه جثة متعفّنة.

***

٤

بعد أكثر من شهر خرجتُ من المستشفى.. عدنا ثنائياً من جديد، لكن بوضع مختلف.. كنت أجلس على كرسي عجلات متنقل بساق خشبية.. تدفعني أحلام أمامها كطفل رضيع في عربة لا ألوي على شيء.

القيادة صرفت لي مبلغاً من المال، والثورة عوّضتني عن إصابتي براتب شهري ضئيل.. استأجرتُ شقة صغيرة، وبدأت أحلام تعتني بي بنوع من الالتزام والواجب.

أحلام أصبحت طاهيتي.. مدبّرة منزلي.. ممرضتي، وسجاني في نفس الوقت.

ساقي اليمنى لم تُشف من الجروح تماماً.. أما ساقي اليسرى فقد بُترت منذ لحظة الانفجار.. أحلام كانت تغيّر على الجرح وتعتني بي كما في المستشفى تماماً.. لم تتغيّر معاملتها إلا بعد أن شعرت أني تماثلتُ للشفاء.. شعرتُ أنها تحقنني بنفس المكان والجرح حتى تطول مدة المرض.. وهذا ما كان يزيد من ألمي.. وعندما كنت أطلب منها البحث عن بقعة ثانية، كانت تتردد وتماطل ثم تغرز الإبرة في المكان الذي يناسبها، وتقول:

- أنا ممرضتك، وأعرف مصلحتك أكثر منك.. على أية حال في المرة القادمة سأبحث عن مكان آخر.

كنت أرتجف من الألم، وأكاد أفقد الوعي، وهي تردد: "على أية حال، أحمد الله أنك عدت بساق واحدة".

كان وقع الكلمات وأثرها على نفسي أعنف وأكبر من كل الجروح والأوجاع.. قلت لها ذات مرة:

- أشعر أن ساقي بدأت تتعفن.. إني أشم لها رائحة كريهة.
- ولماذا الخوف!.. باستطاعتك أن تمشي بساقين صناعيتين.

هربتُ من نظراتها، وتساءلتُ في قرارة نفسي: "هل من المعقول أن تحبني وتؤذيني!.. أحلام لا تؤذي أحداً.. لكن ما الذي غيّرها.. السادية لحظة ألم لا تعني شيئاً مع مرور الوقت.. إذن ما الذي يدفعها للاحتفاظ بي وأذيتي!.. هل هو دافع الحب أم الانتقام!".

لم أصِل إلى نتيجة على تساؤلاتي، لكني كنت على يقين أنها لم تنس الماضي.. أصبحت جزءاً منه، وهو جزء منها.

ذات ظهيرة أحضرت الغداء وقالت: "تعال كل يا نمر".

كانت تعرف أني لا أستطيع التنقل بلا عصا أو كرسي عجلات، ومع ذلك كررت العبارة وأنا مستلقي على السرير.. شعرتُ أنها تهينني وتذكّرني بفشلي الذي لازمني لفترة طويلة معها.

دق جرس الهاتف فجأة.. أسرعت أحلام نحوه.. رفعته وقالت:

- لا ليس موجوداً.

قلت لها "أنا موجود، ولا داعي لتجاهلي".. تجاهلتْ ما قلت، وأضافت: "أنا ممرضته.. إن وضعه محزن جداً".

سألتها ثانية: "من المتكلم؟".. رفعت يدها لأصمت وقالت:

- لا، إنه غير قادر تماماً.. لكني سأحاول. وأقفلتْ الخط.
- من الذي كان على الهاتف؟. سألتها

لم تجب، اتجهت إلى غرفة النوم، وبدأت بتبديل ثيابها.. اتكأتُ على العصا، وتقدمتُ نحوها أقفز.. قالت قبل أن أصل الباب:

- هذا صديق لك يسأل عنك..
- لماذا لا تدعيني أتكلم معه!.. من هو وماذا يريد؟.

تجاهلتْ سؤالي.. كرّرته ثانية وأنا أقف مستنداً على الباب.. قالت بعد أن انتهت من زينتها واستعدت للخروج: "لقد سمعتك".

قلت بتذمّر: "أشعر وكأني سجين في زنزانة انفرادية.. لا أرى أو أكلّم أحداً في هذه الأيام، مثل ناسك في صومعة".

اقتربت مني.. كانت تزرّر قميصها عند صدرها.. أضفتُ وهي تقترب مني: "أعلم أني أستحق ما نلته.. عاملتك كوحش"..

فجأة صرختْ بأعلى صوتها في وجهي حتى شعرتُ أنها كادت تصفعني أيضاً وهي تقول:

- أرجوك.. لا يحق لك انتقاد نفسك، هذا واجبي.. أعدك.

خطت نحو الباب الخارجي.. قلت: "وأنا أعدك أن لا أؤذيك أبداً".

وقفت قبالتي.. نظرت إليّ.. ابتسمت باستهزاء وسخرية، ثم تقدمت نحوي ومسحت بيدها على وجهي، وقالت وهي تضحك:

- لن تؤذيني!.. مسكين.. أنت مضحك جداً.. لا فائدة تُرجى منك.

فتحت الباب وخرجت.

ساعات طويلة بقيت بعد خروجها مقهوراً حتى العظم.. تقيأتُ على ملابسي وعلى الفراش.. عند المساء عادت تحمل أغراضاً بين يديها.. كانت فَرِحة متورّدة الوجه، وكل ما فيها يطفح بحركة أنثوية جذابة.. قلت: "شكراً أنكِ أتيتِ".

قالت وهي تتقدم نحوي: "اشتقت إليّ!"..

- كثيراً..

- بنفس المقدار حين تخلّيت عني!.

رجوتها أن لا تفتعل مشاجرة من لا شيء.. قالت وهي تجلس على السرير وتخلع حذاءها: "لماذا!.. أنا أحب المشاجرات، وقد طوّرتُ طرقاً متقدمة للشجار".

مثل لبؤة مفترسة جائعة متحفزة للإنقضاض على فريسة تقدمت مني.. وقفت أمامي.. أضافت: "في الواقع أنا لا أحب الشجار.. لكن أنت الذي علّمتني إيّاه.. هل نسيت!؟".

لم أجب.. كانت عاقدة العزم على الشجار هذه المرة.. صرخت فجأة وهي تشم رائحة القيء: "ما هذا!، ما هذه الرائحة الكريهة!؟".

تلعثمت.. قلت بغير اكتراث:

- ماذا تتوقعين إذا خرجتِ وبقيت طوال الوقت وحدي!.. لقد تقيأتُ على نفسي..

تقدمت نحوي بلطف، وقالت: "أيها النمر المسكين.. الأفضل أن أبدّل لك ملابسك، وحفاظاتك".

- أرجوك يا أحلام.. أتركيني أموت..

قاطعتني: "كدت أنسى".. فتحت حقيبتها وتناولت علبة صغيرة من داخلها، قدّمتها لي وقالت وهي تبتسم:

- لقد اتصل صديقك، وذكّرني باستلام راتبك الشهري.. وبمناسبة عيد ميلادك الذي يصادف تاريخ العودة إلى الوطن، اشتريت لك هدية..
- حقاً ما تقولين!.. لقد نسيت كل هذه الأشياء.
- هل من المعقول أن تنسى هذا اليوم!.. العالم كله يتذكّره وأنت تنساه!.

تناولتُ العلبة من يدها.. فتحتها ونظرت ما بداخلها.. كان دولاراً ذهبياً معلّقاً بسلسلة ذهبية أيضاً.. تقدّمت مني وعانقتني، وأحاطت عنقي بذراعيها، ثم طوّقت رقبتي بالسلسلة.. وقالت:

- حتى لا تنساني بعد هذا اليوم أبداً.

غامت الدنيا في عيني.. تذكّرت كل شيء في ثوان معدودة.. كل الأحداث بدت هزيلة وناقصة.. كل شيء بدا تافهاً وحقيراً.. شعرتُ وأنا بين ذراعي أحلام أني كلب أليف تحوط رقبته قلادة مصنوعة من جبال الأحزان.

ارتجفتُ، وارتجفت شفتاي.. سالت دموعي أيضاً.. اختفت أحلام في الداخل.. ساد الصمت على المكان، وطيلة الليل لم ينطق أحدنا بحرف.

***

بعد تلك الليلة، تعوّدتُ أن أكون نصف رجل..

تلك الليلة دفعتني أحلام لأراجع حساباتي خلال أيامي الماضية عن كثب.. شعرتُ بعدها أنه حصل نوع من التنظيف الروحي.. كلانا عرف أننا لن نعود ونكتشف قمة الشغف والوحشية مع أي شخص آخر حيّ، غير بعضنا البعض.

أحلام وأنا، بقينا أحياء رغم الكوارث الرهيبة التي مررنا بها، لدرجة أن هذه التجربة شكّلت رابطاً بيننا، لا يشاركنا فيه أي شخص آخر في هذا العالم.

بدا لي أن هناك حلقة مفرغة.. حياة مشروخة، وحلقة مفقودة لم نعد نبحث عنها لنعيد التوازن إلى حياتنا.. ورغم تأكيدها لي مراراً وتكراراً بأنه لم ولن يمسها أحدٌ غيري، وإنها ما عادت تثق

بالجنس البشري بعد تجربتها المريرة معي.. إلا أني كنت أغار عليها من نسمة الهواء، وأظن فيها الظنون، خاصة وإني أعيش معها ضعيفاً وعاجزاً لا أقوى على شيء.

مع أحلام فقدتُ أحلامي.. وعشتُ معها "بعد تلك الأيام" بحذر شديد وخوف دائم.

***

٥

رغم أنها منعت أقرب المقربين من زيارتي، ومنعتني من مقابلة أحد.. إلا أن أحلام كانت لطيفة معي أثناء رحلات التنزه والتمشي على الشاطئ ومشاهدة البحر.. فكثيراً ما كانت ترافقني وتسير بجانبي، وأنا أقود مقعدي المتحرك بعد أن اعتدتُ عليه، قبل أن أتعلم السير بمفردي على ساقي الخشبية..

ومع أنها كانت تلاطفني أحياناً كثيرة، إلا أني لم أنسَ ذلك اليوم الذي أخذتني فيه إلى أحد المتنزهات القريبة.. كان ذلك بعد ظهر أحد أيام الجمعة.. كنت أجلس على كرسي العجلات المتحرك.. توقف طفل يقارب الرابعة من عمره وقذف بكرة يلعب بها نحوي.. أمسكتها بين يدي وألقيت بها نحوه.. تدحرجت الكرة من بين يديه.. ركض خلفها.. أمسكها بين يديه فرحاً وأعاد الكَرّة.. ورغم أني تذكّرت ولديّ، وحزنتُ من أعماقي على فقدانهما، إلا أني شعرتُ بلحظة سعادة حقيقية مع الطفل.

قطعت أحلام فرحتي، ونادت عليّ وهي تجلس وحيدة على بعد أمتار قليلة مني: "شريف.. دع الطفل وشأنه".

تحرّكتُ على الكرسي المتحرك أمامه.. فزع الطفل من حركتي المفاجئة، وأسرع باتجاه ذويه تاركاً كرته على الأرض.. قامت أحلام والتقطت الكرة، وقالت لي:

- هذا مضحك يا عزيزي.. هل تحب الأطفال!؟.

جلت ببصري بين المتنزهين.. لم أشاهد الطفل.. أضافت:

- لن تعرف أبداً قيمة الأطفال.. أنت رفضّتَ أن تكون أباً لطفلي، ولن تكون.. هذا أمر أكيد.

تمشّت نحو الطفل وناولته الكرة وأنا أتابعها بنظراتي.. لم أتكلم.. كادت الدموع تقفز من عينيّ.. عادت وأحضرت لي كأساً من العصير.. قلت لها ملاطفاً ومعاتباً:

- هل أستحق هذه المعاملة!.. أنا لم أرغب في الأطفال سابقاً لأني كنت أشعر أن حياتي معقّدة.. لم أكن مؤهلاً لأكون والداً..

قطعتْ استرسالي:

- هذه مبررات كاذبة.. والحقيقة أنك لم تحبني في يوم من الأيام.. كنت تريد جسدي فقط، لا أماً لأولادك.. متناسياً أن لهذا الجسد أحاسيس ومشاعر، وفيه روح ودم يجري وعاطفة لا نهاية لها..

كانت تتكلم بصوت عالٍ.. شعرتُ أنها ترغب بأن يعرف بقصتها كل من في المتنزه.. قاطعتها:

- لا تقولي ذلك، لقد انتقم الله لك، واسترجع ما أعطانيه حين أخذ مني ولديّ وزوجتي وكل أحلامي.

- هذا جيد.. أنت ما زلت تذكرها أيضاً، كما تذكر أنه كان لك أولاد.. كم امرأة في حياتك غير سعاد وزوجتك وأنا!.. لا شك أنك تتذكر الكثيرات، كما تتذكر أن لك أولاد آخرين!.

تدفّقت الذكريات دفعة واحدة في رأسي.. شعرتُ بتشنج ورجفت.. صمتت أحلام.. أخفت وجهها بين راحتيها وبدأت بالبكاء.. دموعها أثارت في أعماقي كل آهات الوجع والحزن والألم.. دفعتُ عربتي قربها، ولا أدري بأي لسان نطقتُ بهمس وتردد: "بإمكانك الحصول على طفل"..

ثارت من جديد.. قالت:

- يا قليل الأصل، تدفعني لأكون ساقطة من جديد وأنا على ذمتك.. على كل حال إنسَ الأمر، ولا تفكّر به.. أنا عاقر الآن.

تجاهلتُ ملاحظتها الأولى وقلت: "ماذا تقصدين بعاقر!".

- إجهاضي الأخير في الملجأ كان مميتاً.. تركني مع التهابات.. تفاقمت حالتي بعد أن تركتني، وفي الحقيقة كدت أموت..
- لم تخبريني بذلك!.
- وهل رأيتك بعد ذلك اليوم حتى أخبرك!.. على كل حال أنا أخبرك الآن..

أخفضتُ بصري إلى الأرض، وجدت نفسي أهمس بصوت مسموع: "يا إلهي.. كم كنت قذراً.. إني أكره نفسي وأحتقرها.. إني أكره نفسي أكثر مما تفعلين بي".

قالت وقد بدت هادئة تماماً:

- لا تُحقّر نفسك أمامي، فلا أحد يكرهك أكثر مني.

رفعتُ رأسي، نظرت إليها مباشرة وقلت:

- لماذا تبقين معي إذن؟!.. لماذا لا تتركيني وشأني!؟.

ابتسمت وقالت: "لا أعلم.. ربما لأنك غالٍ على قلبي فعلاً، أكثر من أي وقت سابق.. ربما لأننا بدأنا نعرف بعضنا أكثر من أي وقت مضى.. وربما لأننا بدأنا نتيه معاً في غربة جديدة على أرض الوطن.. لكني على يقين أننا بأمس الحاجة إلى بعضنا البعض".

***

رياض

١

اقتربت الساعة من الخامسة والنصف مساء، وأنا أشق طريقي بصعوبة لتغطية خطاب الرئيس في الفندق المقام قرب شاطئ البحر.

توقفت سيارتي أكثر من مرة بانتظار المارة.. كان الجميع يتيهون في الشوارع والفرحة تغمر وجوههم، ورجال الأمن يقفون على طرفي الشوارع ينظمون حركة المرور..

عند الفندق اندفعت الجماهير وأغلقت منافذه، أخذ الجنود يصدونهم إلى الوراء.. كانت زوجتي "غادة" تلاحقني وأنا أتشبث بملابس أحد الجنود.. لوّحتُ له ببطاقتي وأخبرته أني صحفي.. في باحة الفندق تجمع الصحفيون العرب والأجانب وشبكات التلفزة العالمية لتغطية خطاب الرئيس، ومؤتمره الصحفي.

في الساعة السادسة ظهر الرئيس على الشرفة، تعالت الأصوات والهتافات.. رفع يديه ملوّحاً للجماهير.. انطلقت بعض الأعيرة النارية في الخارج.. طلب الرئيس من الجماهير الهدوء وأمر بعدم إطلاق النار.. تحدث باقتضاب عن السلام وفرحة

الشعب بالعودة إلى الوطن، ثم طلب من أخوة السلاح ومن المعارضة أن ينضموا إلى اتفاقية السلام.

صفّقت الجماهير، وانهال الصحفيون عليه بوابل من الأسئلة.. أجاب الرئيس بإيجاز، ثم انسحب من القاعة وسط مجموعة من حرسه الخاص.

انفضّت الجماهير وأخذت تطوف الشوارع وتهتف للعودة والسلام.. بينما بقيتُ وزوجتي في الفندق نستطلع أخباراً جديدة.. على إحدى شرفات الفندق وقفتُ جانبها نتأمل الأضواء المنعكسة على موجات البحر الخفيفة المتلاحقة بهدوء.. بدا وجهها شاحباً بعض الشيء.. قالت إنها تشعر بقشعريرة تسري في جسدها أثر نسمات الهواء الباردة، وأسرعت لتقضي حاجة لها في الداخل.. بعد دقائق معدودة سمعتُ جلبة في الممر.. أسرعتُ إلى الداخل.. شاهدتُ زوجتي تساعد سيدة على الوقوف.. أسرعتُ وأحضرتُ للسيدة كوباً من الماء.. تعافت السيدة وجلست على مقعد جانبي.. كانت ترتدي فستاناً طويلاً أحمر اللون، شعرها بلون الذهب وعيناها واسعتان بلون البحر.. ورغم مسحة الحزن التي كانت تغزو سيماء وجهها، ورغم أنها تجاوزت العقد الثالث من عمرها كما خمّنت، إلا أنها بدت فائقة الجمال.. سألتها إذا كانت مقيمة في الفندق!.. أجابت: "لا، لكني أرافق زوجي، وهو من ضيوف الشرف"، ثم شكرت زوجتي على مساعدتها.. وعندما همّت بالوقوف قالت:

- أنا لم أتعرف عليكما بعد..
- أنا "غادة"، وهذا زوجي "رياض"، صحفي. أجابت زوجتي.
- زوجـي "شـريف" سـيكون سـعيداً بلقائكمـا وممنونـاً لكمـا.. انتظراني لحظة حتى أناديه. وأسرعت إلى الداخل دون أن تنتظر الإجابة.

مرّ شاب أجنبي ثمل من أمامنا يتأبط فتاة وقال:

- لماذا تقفان هنا.. ألا ترغبان في السفر معنا!.

خمّنتُ أنهما سائحان.. قلت ألاطفه:

- لا، لقد وصلنا، إنها محطتنا الأخيرة".

قال وهو يبتعد: "هذه المدينة محط أنظار العالم كله هذه الأيام".

سحبت زوجتي يدي وألقت بها على كتفها، ثم قادتني إلى شرفة الفندق.. أخذت أصابعي تتلاعب بشعرها الفاحم.. انسابت يدي نزولاً إلى خصرها.. شعرتُ بحرارة جسدها وارتعاشه.. قالت:

- لم تعد السيدة.. لنعد إلى البيت نحن أيضاً.
- نحن متزوجان منذ سبعة أعوام ولم يطرأ على حياتنا شيء جديد.. ما رأيك بالسهر في هذا الفندق هذه الليلة!.. إن تغيير المكان نوع من العلاج لاستمرارية الزواج..
- أعرف قصدك من السهر في الفندق، تريد أن تنتظر السيدة.. لقد راقبتك وأنت تلتهمها بعينيك..

- لا تغضبي يا حبيبتي، السيدة متزوجة، ومن الإجحاف والعجز أن يغيّر الرجل امرأته، خاصة إذا كانت جميلة مثلك. قلت أمازحها.
- إذن لنعد ونكمل سهرتنا في البيت.

في البيت، ألقت غادة بجسدها على الفراش وراحت في سبات نوم عميق.. اندفعت صورة السيدة التي التقينا بها في الفندق، واحتلت مكاناً في ذاكرتي.. تشاغلتُ عنها بكتابة التقرير الصحفي.. ومع ذلك ظلت صورتها تراود مخيلتي حتى الصباح.

***

صباح اليوم التالي، أسرعتُ إلى الفندق أتتبع الأخبار، خاصة وأن معظم الصحفيين يقيمون فيه.. تعرّفتُ على بعضهم، وهذا ما دفعني لأعيد الكرة في اليوم التالي.. في اليوم الثالث وبينما كنت أجلس مساء في قاعة الفندق، رأيت السيدة تتخذ زاوية وتجلس وحيدة.. رحتُ أراقبها عن بعد.. فاجأني النادل:

- هل تريد مشروباً سيدي؟.
- أعطني كوباً من الشاي.

علامات الإرهاق كانت واضحة على وجه السيدة، شعرتُ أنها تغرق في صمت قاتل.. أحضر النادل لها كأساً من عصير البرتقال.. قمت عن مقعدي وتمشيت نحوها، اقتربتُ منها وقلت:

- مساء الخير..

لم تتحرك السيدة عن مقعدها، ولم تنظر نحوي كما لم ترد.. أضفتُ: "هل تشعرين بتحسّن!".

نظرت نحوي نظرة استغراب وتعجب.. وقالت:

- أتحسّن من ماذا!.
- من تعثّرك قبل يومين في الممر..
- الممر!.. هل من عادتك التطفل على الآخرين؟. قالت بتهكّم.

شعرتُ بارتباك وحرج، تساءلت في قرارة نفسي "إذا كانت لا تتذكرني فعلاً!".. أجلتُ نظراتي إلى رواد الفندق.. لم يبد على أحدهم أنه انتبه لما دار بيننا.. أخفضتُ نظري وتساءلت في قرارة نفسي ثانية إذا كنت قد أخطأت المرأة أم أنها تتجاهلني!.. أيقظني صوتها من ذهولي:

- بالطبع أذكر.. لدي ذاكرة قوية، لكن لا رغبة لي بالتذكر.
- هل هذا نوع من المداعبة!. قلت في محاولة للتقرب منها.

وضعت إحدى ساقيها على الأخرى تحت الطاولة ولم تجب.. أضفت: "أتسمحين لي بالجلوس؟".

أشاحت وجهها جانباً وقالت: "تفضل، المكان ليس مُلكي".

رسمتُ ابتسامة على وجهي وجلست.. أضافت: "هل من عادتك أن تتدخّل فيما لا يعنيك!".

أغرقتني بسؤالها في الصمت.. أضافت بعد لحظات:

- أنت الصحفي زوج السيدة غادة.. أليس كذلك!

- رياض. قلت أنشّط ذاكرتها.

استرخت على المقعد، أخذت جرعة من العصير.. ألقت بثقل صدرها على الطاولة وقالت:

- حسناً يا سيد رياض، أنا في قمة أحزاني.. قل شيئاً مسلياً.

للمرة الثانية وجدتُ نفسي أتقوقع وأنكمش أمام كلماتها الجارحة.. قلت بعد تردد:

- أعتقد أنك لبنانية.. عرفتُ ذلك من لهجتك.

أغمضت عينيها غير مبالية بما سمعت.. أضفت: "من المؤسف حقاً أن تكون امرأة جميلة مثلك في قمة أحزانها".

فجأة رفعت رأسها، تحركت بعصبية ثم وقفت قائلة:

- كفى، كفى. حملت حقيبتها وأضافت باستهزاء وهي تغادر المكان: "الوداع، أهنئك على شخصيتك التي لا تُقاوم!".

***

٢

ظهيرة اليوم التالي، تواردت الأخبار عن انفجار هائل في الأرض المحتلة، حطّم حافلة وقتل وجرح عدداً كبيراً من الركاب.. لم أستطع الوصول إلى مركز الحدث.. أسرعتُ إلى الفندق، وانشغلتُ في التقرير الصحفي لعدة ساعات.

عند المساء رحت أتجول في باحة الفندق.. استوقفتني لوحة الموناليزا على الجدار.. وقفت أتأملها.. لا أدري كيف انبثقت من داخلها صورة زوجتي غادة شفافة وناعمة كالضباب.. في أعماقي انبرت سبعة أعوام متتالية بلا أطفال تطفو على علاقتنا التي بدت تدور في حلقة مفرغة.. شعرتُ بفراغ حقيقي يملأ حياتي.. فجأة اختفت معالم وجه غادة، وتراءى لي وجه السيدة ذات الشعر الذهبي اللون، يتألق وسط إطار اللوحة.. أحسستُ إحساساً غريباً حين تخيلت أن حياتي أصبحت فارغة وبلا نكهة.. فاجأني صوت رجل يقف خلفي مباشرة:

- لوحة جميلة، أليس كذلك!.

صوته قطع حبل أفكاري وأيقظني من عالمي.. نظرتُ إليه.. رجل في العقد الرابع من عمره تقريباً، يتوكأ على عكاز تحت إبطه، وجهه مستدير، شارباه أسودان غليظان ولحيته بدأ يغزوها الشعر الأبيض، أضاف: "أنت رياض الصحفي المشهور، أليس كذلك!".

- آسف، هل تقابلنا قبل هذه المرة!.
- لا لم نتقابل، لكني أعرفك تماماً.. لقد حدّثتني عنك أحلام..

شعرتُ باختناق مفاجئ، هممتُ بالمغادرة.. قلت:

- آسف، لا أعرف عمّن تتكلم.
- بالتأكيد تحاول التعرف عليها.. لقد راقبتك.. منذ أيام ثلاثة وأنت تأتي إلى الفندق تلاحق أنفاسها.. شاهدتك تحوم حولها كالفراشة وهي تجلس في القاعة مساء أمس.. حتى وأنت تتمعّن في اللوحة عيناك كانتا ترسمان لوحة لها.. ذاكرتك أيضاً مشغولة بها.. لا تخفي نظراتك، ولا تُنكر ما تُفكر به.

حاصرتني كلماته كشبكة عنكبوتية.. أحسستُ أنه يقرأ أفكاري.. كان منفعلاً تماماً.. هزّ عكازه وأضاف:

- أنظر ماذا فعلتْ بي، لقد حطّمتني.. إني أتحرك على عكاز وساق خشبية.. أنا زوجها "شريف"، سجينها.

تلعثمت، حدثت نفسي "هذا الرجل مجنون".. لكني حاولتُ الهدوء وتجاهلت ما قال، قلت:

- أنا آسف ثانية.. لا أدري عمّن تتكلم.
- بل تدري.. لكن يبدو أنك تتجاهل. ثم أغمض عينيه وغيّر من لهجته فجأة، وأضاف بوداعه وود:
- دعني أسألك شيئاً يا سيد رياض، أنا جاد في سؤالي، ماذا تريد منها!؟.

صورة السيدة ذات الشعر الذهبي انبثقت ثانية في رأسي، ومع ذلك لم أجب.. أضاف بهدوء حزين:

- امرأة جميلة، أليس كذلك!، بل وأكثر من ذلك.. إنها حورية.
- يبدو أنها تسبب لك آلاماً.. أليس كذلك!.

قاطعني: "أعرف ما يدور في رأسك، تريد رؤيتها، وتحاول التقرب منها"..

قطعتُ استرساله وحاولت أن أوقف سيل كلماته المتدفقة.. قلت: "أنت مجنون حقاً". قال وكأنه لم يسمع:

- لا تعاند نفسك، أنت متشوق لتعرف الكثير عنها..

حاولت الانسحاب من أمامه، لكنه اعترض طريقي بعكازه، وأضاف: "بعد أن حدثتني عنك.. راقبتك، تبعتك من مكان إلى آخر، لكني لست مثلك.. أنا أحب دخول البيوت من أبوابها وليس من نوافذها.. هيا معي وادخل البيت من بابه.. اطرد من ذاكرتك أفكارك الشيطانية، وتعال معي، فأنا بحاجتك".

حاصرني بكل سلاسله وقيوده وقرأ أفكاري.. هذا الرجل إما إنه مجنون أو عرّاف، "حدثت نفسي"، غريب الطبع والطباع.. جريء حتى في صراحته التي تبدو وقحة.. أضاف:

- لدي شعور أني أعرفك منذ زمن.. لقد قرأتُ كل مقالاتك في الصحف، كما قرأت معظم كتبك.. إني أحفظك عن ظهر

قلب، وأشعر أنك الشخص الذي أبحث عنه منذ سنوات عديدة، وأنك الوحيد الذي يمكنه مساعدتي.

لم أتفوه بكلمة، راودتني نفسي أن هذا الرجل ينصب لي كميناً أو فخاً.. لكنني كصحفي أشعر أن في أعماقي روحاً للمغامرة، وأحب الغوص في المجهول.. وبدا لي أن وراء هذا الرجل حكاية، ولا بد أن أكتشفها بنفسي.

***

كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، عندما ولجتُ بيت شريف للمرة الأولى.. أضاء النور.. بدت غرفة الاستقبال واسعة ومرتبة.. دعاني للجلوس وجلس على مقعد عجلات متحرك، بعد أن وضع عكازه جانباً.. على الجدار قبالتي كان هناك لوحة لرجل مقاتل يرتدي بزة عسكرية ويحمل رشاشاً بين يديه.. قال شريف وأنا أتأمل اللوحة:

- ما زلت أحتفظ بها حتى لا أنسى يوماً ما أني كنت مقاتلاً في صفوف الثورة مع رجال المقاومة.

تأكدتُ من حدسي، وأيقنت أن وراء هذا الرجل حكاية طويلة.. نظر في وجهي مباشرة وقال:

- أعرف أنه من الصعب عليك التقرب من رجل لا يهمك أمره.. لكنه قد يهمك أن تكتب قصة المرأة التي شغلت فكرك في الأيام السابقة.. المكان لنا.. وزوجتي نائمة في غرفتها.

لا أدري كيف وجدتُ نفسي منقاداً لـه.. شاركته في الشراب، وأقنعتُ نفسي بأني سأكتب رواية جديدة عما يخبئه هذا الرجل من أسرار مع امرأته.. أيقظني من أفكاري وقال:

- آمل أن يتّسع صدرك لحكايتي.. إنها رواية جيدة للنشر.. لقد بدأتُ بكتابتها منذ سنوات طويلة على شكل مذكرات.. وعندما أخبرتني زوجتي عنك، شعرت أنك الوحيد الذي يمكن أن أعتمد عليه ويساعدني في صياغتها حتى ترى النور.

مدّ يده وفتح خزانة جانبية قريبة من مقعده.. تناول ملفاً كبيراً يحتوي على مجموعة من الأوراق.. نثرها أمامه على المنضدة وأضاف وهو يقّلب صفحاتها:

- كنت أحلم أن أكون كاتباً في يوم من الأيام، لكني أصبحتُ عاجزاً عن فعل أي شيء.. أصبحت أتفرج على الحياة ولا أعيشها.. حياتي أصبحت هامشاً على صفحة صفراء بالية..

ثرثر شريف كثيراً أواخر تلك الليلة.. ومع ذلك لم تصحُ زوجته، لملمتُ أوراقه ووقفتُ مستأذناً بالرحيل، فقال:

- أشعر أنك مللت بلا سبب.. لكنك مخطئاً.. إني أتحدث بالتفاصيل المملة لتكون مستعداً بشكل تام لحكايتي مع "أحلام"، زوجتي.. إني أحاول أن أريك كم كنت مستعداً

روحاً وجسداً لسحر هذه المخلوقة، التي أثّرت عليك لهذه الدرجة منذ أن رأيتها أول مرة..

قطعتُ استرساله وقلت: "أنت مخطئ في كل ما قلت"..

- إذا كنت مخطئاً، دع أوراقي محلها، اذهب ودعني لأفكاري وحدي. قال بنبرة حزينة.

أحسستُ أنه يطرق وتراً حساساً كلما هممتُ بالرحيل.. وكأنه عرف نقطة ضعفي.. قلت في محاولة لأجد همزة وصل تربطني به ثانية:

- إذا كان الكلام يريحك، فأنا على استعداد للعودة ثانية.. لكن عليّ أن اذهب الآن، زوجتي تنتظرني..

قال وأنا أخطو نحو الباب:

- لقد شعرتُ يا سيد رياض، أنك تصغي جيداً لما أقول.. وهذه ميزة نادرة عند قليل من الناس..

لم أعطه مجالاً للكلام أكثر من ذلك.. فتحتُ الباب وخرجت.

***

٣

في البيت تحدثتُ مع زوجتي غادة بإسهاب عن شريف زوج أحلام.. لكنها كانت تتغاضى وتُعلّق بجمل مقتضبة.. وفي مطعم الفندق حيث دعوتها لتناول وجبة الغداء، جلستْ متوترة الأعصاب بلا سبب.. وعندما تحدثتُ عنه ثانية قالت باستغراب:

- لا أدري ما الذي يثير اهتمامك بتفاصيل حياة هذا الرجل!.
- لا أعلم، ربما لأنه عاجز، ويحتاج إلى مشاهدين ومستمعين..
- مسكين!، عاجز!، وأنت ترغب في أن تكون عكازاً له، وتتحجج بكتابة قصة حياته!..

فجأة ظهر شريف قرب باب المطعم يتوكأ على عكازه، ترافقه زوجته أحلام.. تشاغلتُ بالنظر إلى غادة، وأخذت أصابعي تتلاعب بالكأس الذي بين يديّ، ما أن شاهدني حتى قال:

- مرحباً سيد رياض.. ما هذه الصُّدفة الجميلة، أنا سعيد برؤيتك ثانية.. ثم نظر إلى غادة، وأضاف مبتسماً: "إنها زوجتك.. أليس كذلك!".

عبست غادة، ثم ابتسمت ابتسامة صفراء ولم تتحرك في مقعدها.. دعوتُ شريف وزوجته لمشاركتنا الطعام وأفسحت لهما المجال.. وبينما كان شريف يجلس على المقعد بصعوبة، تبادلت أحلام وغادة نظرات خاطفة وكلمات تعارف مقتضبة.. شعرتُ أن

للمرأة لغة خاصة وحساسية تجاه المرأة الأخرى، لا يمكن أن يصل إليها الرجل أو يفهمها.. همست أحلام بأذن زوجها قبل أن تجلس، فقال: "حسناً، يمكنك الذهاب وتسوية الأمر".. ثم نظر إلى غادة وهي تتابع خطوات أحلام وأضاف: "أحلام زوجتي رائعة.. لكن أنتِ أيتها الجميلة، أرجو أن لا تفهميني خطأ.. أجد جمالك أكثر رقة.. هذه نوعية تزيد المرأة إشراقاً".

شعرتُ أن شريف يتعقّب أفكاري ويحاول اصطياد مخيلتي.. لكنه أخطأ عندما امتدح جمال زوجتي أمامي.. حدثت نفسي "إنه يحاول أن يرد الصاع صاعين، وكأنه يقول البادئ أظلم".. غادة أعجبها المديح فجاملته بابتسامة وقالت:

- زوجي رياض فقدَ سِحر كلمات الإعجاب منذ سنوات. ثم نظرت إليّ وأضافت: "أليس كذلك يا رياض!".

لم أجب.. فقال شريف:

- سامع يا رياض.. زوجتك اعترفت أنها فقدت سحرها بسببك.. أنظر إليها لترى كم هي رائعة وجميلة!..
- أليس هذا ما يدعوه الجميع التقدم في السن بلا أطفال!. قلت.

انكمشت غادة وتكوّرت على نفسها.. تغيّرت ملامح وجهها.. أضفت: "زوجتي حساسة أكثر من اللازم".

شعرتُ أن الموقف بدأ يخرج عن طوعي، وفي محاولة للإصلاح أضفتُ: "إن سر حساسيتها هو الإشراق الذي يجعل وجهها متورّداً".

لزمت غادة الصمت.. فقال شريف:

- زوجك يا سيدة غادة يملك نصف قلب، وهذا أفضل من لا شيء.. وعليك أن تتعاملي معه على هذا الأساس..

قاطعته حتى لا يتمادى معها أكثر من ذلك:

- كل واحد في هذا العالم لديه أسراره الخاصة في حياته..
- أسرار القلب تفضحها نظرات العيون يا سيد رياض.. كل علاقة مهما كانت متناغمة، فيها بذور من الضياع..

تأففت غادة وقالت: "الطقس شديد الحرارة".

ظهرت أحلام قربنا فجأة وقالت: "المعذرة، آمل أن لا يكون شريف قد أشعركما بالملل".

ابتسمت غادة وقالت: "لم نركِ منذ ذلك اليوم!"..

- ألم يخبرك زوجك رياض أننا تقابلنا بعد ذلك اليوم!؟. أجابت أحلام وهي تنظر إليّ.

تجاهلت غادة ما سمعت وقالت لأحلام وكأنها تستفزني:

- زوجك شريف لديه حسّ بالفكاهة.. إنه مناسب للمجاملات.

لم تُعلق أحلام، واستأذنت قائلة: "هيا يا شريف، يجب أن نترك السيد رياض وحرمه بسلام".

قال شريف وهو يحاول الوقوف:

- يا سيدة غادة، سبق وتطفلتُ عليك أثناء حديثي.. لكني أريد خدمة صغيرة، بالتأكيد رياض أخبرك أننا سهرنا معاً قبل أيام.. لقد وجدتُ رفقته جيدة.. فهل تأذني له بالسهر عندي مساء هذا اليوم؟.

ترددت غادة في الإجابة، ثم قالت بعصبية واضحة:

- رياض ليس بحاجة إذن من والدته أو زوجته.. إنه راشد.

ابتسم شريف بخبث وغادر المكان مع أحلامه، بينما كانت غادة تحدق بي وتتفحص تعابير وجهي بغضب واضح.

***

أحلام كانت ترفض حتى المجاملات البسيطة، ومع ذلك لا أدري ما الذي كان يشدني إليها.. أهو سحر جمالها أم التطفل لمعرفة حكايتها مع شريف!، لكني كنت على يقين أني معجب بها، وتراودني رغبة للتقرب إليها.. قبل مغيب الشمس وجدتُ نفسي منقاداً إلى بيتها..استرخى شريف على مقعده وأشعل سيجارة، ثم قال بلا مقدمات:

- أنا على يقين أنك وغادة تتقلبان على فراش صحي جيداً، ولم تصلا حد اللعنة الكلية بعد.. لكن لماذا هذا الخلاف بينكما بعد هذه السنوات من الزواج!.
- أليس لديك بعض اللياقة يا رجل!، هذه خصوصيات وأسرار.. أنت فعلاً جريء وفاسق..

- غريب، جريء، فاسق، هذا لا يهم.. هل سبق لك وعشت مع امرأة تحبها بكل جوارحك!.. هل سبق لك أن عبدت امرأة!.. لا، لا شيء في هكذا حب.. لكني أرى أن كل شيء يصبح ممكناً.. لكنك لا ترى ما أراه..

صمت لحظة.. سكب كوباً من البيرة وأضاف: "خذ اشرب، إنها تُهدّئ الأعصاب.. على أية حال، تلك كانت أسطورتي التي لم تصلها أنت بعد".. أطفأ سيجارته وأشعل أخرى وناولني إياها وأضاف: "أنت تختلف مع زوجك على إنجاب طفل.. لكنك لم تختلف معها على عجزك وإفلاسك.. أتعرف ماذا يعني ذلك!.. يعني أن تكون ذليلاً أمام من تحب".

- إذن هكذا كان الأمر.. كان الطبل مثقوباً..

لم يُعلّق شريف.. غرق في هموم بعيدة.. شجّعني صمته على المتابعة.. أضفت: "هل تعتقد أنني تمتّعت بهذه التفاهات التي تقولها!".

ارتعش فجأة وقال: "ألم تعجبك قصتي فعلاً يا رياض!".

فجأة فُتح الباب ووقفت أحلام تتأملنا.. كانت ترتدي روباً زهري اللون، قالت بلا مقدمات:

- أما تزالان تثرثران!.. أليس لكل منكما زوجة تنتظره!.

المفاجأة عقدت لساني، شعرتُ أنها تخاطبني مباشرة.. وقفتُ واستأذنتُ بالانصراف.. أحسستُ أنها تعاملني مثل قطعة قماش بالية.. فقال شريف يخاطبها:

- السيد رياض كان صبوراً للغاية معي.. إن له أسبابه الخاصة للقدوم والسهر معي..
- لا داعي لتوضيح الأسباب. قلت.

بجرأة متناهية ووقاحة، قال شريف وكأنه لم يسمعني:

- رياض يجلس الساعات هنا ينتظر.. إنه لا يصغي لحديثي.. دائماً في انتظار وترقب بعد أن هجر زوجته.. لهذا يواصل القدوم.

تمنيّت أن أصفعه على وجهه، لكن أحلام سبقتني، صفعته وقالت: "اخرس يا معتوه، أنا أشرف منك ومنه".

لم يتفوّه أحدنا بحرف.. خيّم الصمت على المكان.. شعرت أن الصفعة القادمة ستقع على وجهي.. فتحت الباب وخرجت، وفي نيتي أن لا أعود إليه ثانية.

***

٤

كانت غادة مشغولة بزينتها أمام المرآة، والساعة تقترب من منتصف الليل.. قلت:

- أنا آسف فعلاً.. لم يتركني شريف أرحل بسهولة..
- لقد تأخرت فعلاً. قالت غادة بغير اكتراث. ثم نظرت إليّ من خلال المرآة تتفحصني، وسألت: "هل نالت منك**!**".

أبديتُ دهشة لسؤالها، وتشاغلت بتبديل ملابسي، قلت: "مَن**!**".

بدت متضايقة وقالت:

- نعم أم لا.. هذا هو الجواب.. أما أن تقول مَن**!**؟ فهذا تجاهل بحقي لا أرضاه.. أنت تعرفها جيداً.

تقدّمتُ منها وحاولت ملاطفتها.. كانت تقرأ عينيّ وكنت أتلعثم أمام نظراتها.. قلت:

- نعم لقد حضرتْ آخر السهرة، إنها مخلوقة غريبة.
- مخلوقة غريبة**!**، لكنك مقتنع أنها ليست سيئة المظهر.. ربما أنت منجذب إليها..

طوّقتها بذراعي وحاولت أن أبدد شكوكها..

- أنظري إليّ، أنا لست كسائر الرجال.. أنا زوجك، لا أملك ماضياً..
- وهل تعتقد أني أملكه**!**. قاطعتني بنبرة حادة

قلت ألاطفها: "لا هذا ولا ذاك، انسي الموضوع، ما رأيك أن نفطر صباحاً خارج البيت**!**".

وافقتْ غادة على الفور، بدّلتُ ملابسي استعداداً للنوم، أبديتُ إعجابي بزينتها، وطلبتُ منها أن تختار المطعم الذي ترغب بتناول الإفطار فيه، فقالت:

- لا يهم المطعم.. المهم أن نكون معاً.
- ما رأيك بمطعم شاطئ النخيل؟

- أي مكان تختاره أنا موافقة عليه.

***

مع تناول الطعام، بدت غادة مثل وردة مخملية تفتحت عند الفجر على ندى الليل.. نسيتُ كل شيء عداها.. بعد أن تناولنا الطعام قمنا نتمشى على الشاطئ.. توقفت نظراتها عند طفلة جلست في ركن جانبي.. وتنهدت "ما أجملها".. ثم تمشّت نحوها مباشرة، وسألتها:

- أنت وحدك يا صغيرتي!.. ما اسمك؟

اقترب رجل ترافقه طفلة ثانية وبيده قطعتين من الحلوى.. قال:

- هذه ابنتي حنان، كنت أشتري بعض الحلويات لهما.

خُيّل لي أني أعرف هذا الرجل.. صوته بدا مألوفاً.. نظرتُ إليه بتمعن.. وجهه لم يكن غريباً أيضاً.. سبقني بذاكرته.. ابتسم ومد يده مصافحاً وقال: "مرحباً سيد رياض".

سنوات طويلة مرّت كلمح البصر في ذاكرتي.. "سعيد" كان من بين القلائل الذين صادقتهم أثناء سنوات الدراسة الجامعية.. قلت: "أهلاً سعيد، بالأحضان يا رجل.. كيف حالك؟".

- بخير.. مضى زمن طويل قبل أن نلتقي ثانية.. ما هي أخبارك؟
- الصحافة شغلت كل وقتي، ولا أستقر في مكان.. كرت فرّار. قلت.

جلسنا على مقعد قريب من الشاطئ نتحدث، فيما انشغلت غادة بالطفلتين.. قال إن زوجته توفيت منذ أربعة أعوام، بعد أن تركت له ابنتين.. أمل وحنان.. وأضاف وهو يتابع غادة بنظراته: "هذه زوجتك، أليس كذلك!".

- غادة.. إنها تحب الأطفال كثيراً..

قال ممازحاً: أرجو أن تكون قد أمّنت خلفك من هذه الغادة.

تجاهلتُ سؤاله، وتشاغلت بالنظر إلى البحر.. كانت أمواجه هادئة تلاحق بعضها بعضاً بدلال.. سمعته يقول ثانية:

- ألم تُرزقا بأولاد!

همستُ حتى لا تسمع غادة: "لا"..

فجأة تدخلت غادة وقالت معلّقة وكأنها سمعت كل أطراف الحديث: "رياض يعتقد أن العالم مشكلة معقدة، ولا يريد أن يضيف إليه مشكلة جديدة بوجود طفل جديد".

- هذا منطقي جداً في بلاد غير هذه البلاد، لكن الأراضي المغتصبة تريد سواعد كسنابل القمح لتحريرها. قال.

ابتسمت غادة وقالت: "أرجو أن يفهم رياض ذلك.. اقنعه يا سيد سعيد".

رن جرس الهاتف النقال فجأة، سمعتُ صوت أحلام على الجانب الآخر، قالت بلا مقدمات: "لا تُصدّق كل ما يقوله شريف، إنه رجل مريض، يتخيّل الأشياء، أرجوك لا تسيء الظن بي".

ترددتُ في إغلاق الخط.. أضافت: "يجب أن نتحدث على انفراد، يجب أن أشرح لك".

- أخشى..
- لا تخشَ شيئاً، "قاطعتني"، أرجوك تعال إلى البيت، لن يزعجنا أحد. وأغلقت الخط.

هبّت نسمة هواء باردة.. أقبلت غادة تعدو خلف الطفلتين بمرح.. قال سعيد إنه يقيم في الفندق، ودعانا لزيارته.. وحين غادر الشاطئ، وقفتْ غادة صامتة صمت البحر تراقب الطفلتين وهما تبتعدان، ثم قالت: "منذ زمن طويل لم أشعر بالسعادة كما شعرتُ بها هذه الليلة".

***

٥

بعد ظهر اليوم التالي، تناقلت الأخبار عن انفجار شاحنة تُقل عدداً من المستوطنين في الأرض المحتلة.. كانت النتيجة سبعة قتلى وأكثر من ثلاثين جريحاً.. تشاغلتُ بنقل أخبار الحدث وكتابة التقرير الصحفي.. قبل الغروب جالت بذاكرتي المكالمة التي تلقيتها من أحلام.. الأمر الذي دفعني إلى بيت شريف.. أحلام هي التي فتحت الباب.. دعتني للدخول وقالت إن شريف يغط في نوم عميق.

بعد أن أعدّت القهوة.. جلست قبالتي وقالت:

- هل أعجبتك حكاية شريف**!؟**.
- أريد أن أسمع القصة منكِ أنت، قبل أن أبدأ بكتابتها.

صمتت، نظرت إلى فنجان القهوة وقالت:

- إني أترك الكلمات له.. هذا كل ما تبقّى له.. إنه شاهد إثبات على ما فعله بي..
- قرأتُ كل أوراقه، لكني أريد أن أسمع حكايتك معه من وجهة نظرك.
- لا أعلم ما قال لك شريف أو ما كتب في مذكراته، لكني أعرف قصة حياتي التي انتهت على هذا الشكل معه.. فإذا

كنت مصراً على نشرها كما وعدته، فاكتب ما حدث بيني وبينه من وجهة نظري..

اعتدلتْ في جلستها، بدأت تتحدث وأنا أستمع.. فجأة انفتح الباب وظهر شريف على كرسيه المتحرك من غرفة داخلية، قال بلا مقدمات أو تحفّظ:

- أعرف أن الخيانة تسري في دمك كما تسري في عروقها.

وقفز من كرسيه المتحرك يتوكأ على عكازه مقترباً مني.. كان الغضب واضحاً في عينيه، ولم يكن أديباً ولا شريفاً تلك اللحظة.. وقفتُ وتراجعتُ إلى الوراء.. قالت أحلام:

- كفى جنوناً يا شريف.. لا تمثل دور الرجل الشريف الذي يغار على امرأته. وانسحبتْ إلى الداخل.

اقترب من الخزانة، فتحها وتناول مسدساً صوّبه نحوي وقال:

- أين تذهب مني هذه المرة؟، أنا أعرف ما يدور في رأسك.

أذهلتني المفاجأة.. أضاف وهو يلقي بثقل جسده على مقعده المتحرك من جديد: "أعرف أنك جئت من أجلها.. كلكم خونة.. أعرف أن الخيانة تسري في دمك مثلها.. ما الذي فيها مميزاً أكثر من زوجتك!.. غادة أجمل وأنقى وأطهر.. هيا ازحف أمامي واذهب إلى مقبرتك الزوجية".

شريف كان جاداً هذه المرة، خشيت أن يطلق النار فعلاً.. أضاف: "لقد وثقت بك يا رياض، لكنك لم تكن أهلاً للثقة، وسقطتَ عند أول تجربة".. وفي لحظة مفاجئة سدّد فوهة

المسدس نحوي، وأضاف بصوت حزين: "في قرارة نفسي حاولت أن أختبرك عندما طلبتُ من أحلام أن تتصل بك وتدعوك إلى البيت.. كنت أحاول أن أعرف كم فارس يتكرر في حياتي"..

فتحتُ الباب، وقبل أن أخرج قلت له:

- أتعرف يا شريف، أنا أشفق عليك.. عليكما الاثنين.
- اللعنة عليك وعليها، "قال بغضب"، أنا لا أريد شفقة من أحد.. لكني أردت أن أعرف إذا كنت تحافظ على الصداقة فعلاً أم تخونها!.
- إذن أبعد السلاح ودعنا نتفاهم.

قال والحزن يغمر وجهه وعينيه:

- أتعتقد أن هذا سلاحاً حقيقياً!، إنه مصنوع من مادة بلاستيكية، لعبة أطفال. ألقى به على الأرض، ثم نظر إلى الخارج وأضاف: "لم يعد لدينا سلاح حقيقي منذ أن وقّعنا على اتفاقية السلام.. الكلمة عند العرب وعْدٌ أقوى من الرصاص.. ألا ترى أنني وثقت بك، لكنك لا تستحق هذه الثقة.. الحياة أصبحت وهْماً وخيانة".
- أرى أنك عدت لهذيانك وشكوكك مرة أخرى.
- إنها فكرتها.. جاريتها وأحببتُ أن أعرف ما إذا كانت لا تزال تتلاعب بي.

حملقتُ في وجهه بغضب وقلت: "مَن يسمعك يعتقد أنك تعمل قواداً لها".

اندفع نحوي بكل قوته، تعثر وسقط.. جلس على الأرض.. لم يعد بمقدوره غير صب الشتائم واللعنات.. بدأ ينهار، أخذ يرتعش ويبكي بانفعال شديد، كنت أحس ذلك من خلال اختلاج جسده..

- أنا آسف. قلت.

رفع رأسه، مسح دمعه بصفحة يده ثم نظر إليّ وقال:

- إنها سلطة القوي على الضعيف.. أنا لا أستطيع أن أطالب بما لا أستطيع تأمينه لها بعد هذا الحادث المشؤوم، الذي جعلني من أنصاف الرجال..

عادت أحلام من الداخل تحمل صينية قهوة وعليها ثلاثة فناجين.. قطعت استرساله وقالت له:

- لا شك أنك انسان معتوه.. أنت مجنون فعلاً يا شريف.. أنت تتوهّم كثيراً، ومشكلتك أنك تُصدّق أوهامك.. إذا كنت سأخونك، فما الذي يمنعني من ممارسة الجنس أمامك، وأنا أعرف أنك عاجز لا تلوي على شيء.. لكنني مخلصة لك، هل تفهم يا شريف!.. هل تفهم!؟.. أنا أحبك ولا أحب غيرك.. لكني أشفق عليك من أفكارك.. أنت تُمثّل لي الجنس البشري الذي كرهته من أجلك.. وفي نفس الوقت أنت نصفي الآخر الذي لا يمكنني الاستغناء عنه.
- كفى، كفى. صرخ بأعلى صوته، وراح يضرب المقعد بقبضة يده..

مثل كلب كان يعوي ويلهث.. انسحبتُ نحو الباب، وقبل أن تغلقه أحلام خلفي قالت:

- لا تصدّقه، إنه أسير تخيّلاته المريضة.. إن مكانه مستشفى الأمراض العقلية.

عدت إلى البيت مهزوماً.. لم أجد غادة في البيت.. راحت أفكاري تتيه في غيابها ومكان وجودها!.. وأنا أتخبط بأفكاري.. وقع نظري على مظروف معلّق قرب الباب.. أسرعتُ وفضضته.. كانت غادة قد ألصقته قبل خروجها من البيت تقول فيه "إذا عُدت قبلي إلى البيت، تجدني في فندق شاطئ النخيل".. تساءلت في قرارة نفسي، "ما سبب خروجها في الليل، ولماذا!؟".

أسرعتُ إلى الفندق وفي ذاكرتي سؤال يضغط على حواسي: "لماذا أقحمتُ نفسي في علاقة فاشلة مع أحلام وزوجها!، وولجتُ بيتهما من النافذة!، وهل فعلاً أريد كتابة رواية جديدة!، أم أن إعجابي بها هو الذي دفعني لملاحقتها ونسيان غادة!؟".. أزداد خفقان قلبي وأنا ألج باحة الفندق، فجأة شاهدتُ غادة تجلس في ركن جانبي قرب سعيد وابنتيه.. أحسستُ بطعنة حادة.. لم أكن أتوقع منها هذا التصرف أبداً.. شعرتُ بغضب يملأ جوانحي، بينما بدت غادة في لحظة سعيدة.. قالت بدلال وأنا أقترب منها: "وأخيراً جئت"..

لم أجب.. أضافت: "لازمني سعيد مع ابنتيه طوال الوقت، ولم أشعر بالوحدة التي تركتها خلفك".

أمسكتها من ذراعها ووبّختها على خروجها في الليل، وفي البيت راحت الشكوك تحوم حولها وتقلق راحتي، تؤرقني طوال الوقت مثل جمر ملتهب.

***

في الصباح بدت غادة وكأنها قد نسيت كل شيء، أحضرت القهوة وجلست قبالتي، وحين لمتها على فعلتها، لم تجب، قلت لها: "وتسمحين لشخص أن يحاول إغوائك!".

نظرت إلى وجهي، حدقت بملء عينيها وقالت: "أنت تتكلم!"..

- ماذا تعنين؟ سألتها.

كانت تصب القهوة، وبغير اكتراث قالت:

- أنا لست غبية كما تتصور.. أنا اعتقدتُ أنك تغار عليّ، أما أن تشك في تصرفاتي، فهذا ما لا أسمح لك به.. أنا كتبت لك وأعلمتك بمكاني قبل خروجي من البيت.. ولا تنس أن هذا صديقك القديم الذي حدثتني عنه كثيراً، وقلت أنك تثق به.. راودتني أفكاري أثناء غيابك عن البيت أن أملأ وقت فراغي بالتحدث مع ابنتيه.. أما جلساتك مع هذا العاجز.. أنا أعرف أنها ليست من أجله.. لا أعلم ما الذي يجذبك إليه!.. لكنها ليست عينيه الزرقاوين!.

تجاهلتُ ملاحظتها وقلت: "أنا لا أفهمك".

- بل تفهمني وتتجاهل.. إنها عشيقته، زوجته، أخته، قل ما يحلو لك عنها.. الشقراء ذات العيون الزرقاء أنت مولع بها، وتحاول أن تكوّن معها علاقة غير شريفة. قالت بعصبية.

حاولتُ الدفاع عن نفسي، لكنها قاطعتني وقالت:

- دعني أتابع حتى أنهي كلامي.. إني أشعر بالأسف من أجلك، أشعر وكأنك أصبحتَ أخرساً وأنت تجلس أمامه وتُدلّي لسانك.. ولتعلم يا صاحب اللسان الطويل، أيها الصحفي المشهور، أن أي شيء تجيده، أنا أجيده أفضل منك.

قالت ذلك وأسرعت تتقيأ، وعندما عادت كانت في حالة غضب شديد.. اندفعت إلى السرير.. ناولتها قرصاً مهدئاً، ابتلعته وشربتْ خلفه كأساً من الماء دفعة واحدة وقالت:

- يجب أن أتناول الحبوب.. أليس كذلك!.
- ستشعرين بالراحة بعد قليل.
- أشعر بالراحة أم بالنوم.. لا تتحامق يا رياض.. أعرف أنك أعطيتني قرصاً منوّماً..

بدت في حالة استرخاء تام.. قلت: "أنا لم أقصد..".

أضافت وكأنها لم تسمعني: "اجعل الأمر ذا أهمية.. ماذا تفعل هنا!.. اذهب إليها.. أنت تبحث عن شيء لا تجده عندي.. الأمر لم يعد سهلاً أبداً بلا أطفال.. تزوج يا رياض، هذا من حقك.. لكن لا تمثل أنك شريف وأنت تغوص في بحر من الخيانة".

اقتربتُ منها.. ضممتها بين ذراعي.. كانت تتألم بانفعال شديد.. بدأت تتهاوى إلى آبار النوم العميق.. قالت:

- أنت أعطيتني قرصاً منوماً، وما زلت هنا!.. لماذا أنت مهووس بامرأة العاجز القذر.. لِمَ لا تذهب إليها وتتركني بسلام!.

أشعلتُ سيجارة وجلستُ على الأريكة أرقبها.. هذت جملاً متقطعة ثم غاصت في سبات نوم عميق.. أجلتُ بصري في الغرفة.. بدت مثل أرض قفر حادة الصخور.. أحسستُ لأول مرة بمشاعر غادة تتصادم وتتكسر، تتحطم وتتلاشى من أجل علاقة باتت على شفير هاوية..

منذ أعوام عدة لم تبح غادة بما يدور في خلدها.. هذه الليلة عرّتها دموعها من الداخل، وكشفت ما خبأته من أسرار.. ومع أني قاومت دموعها، إلا أني وجدت نفسي مقيداً بكلمات شريف الذي قالها على مسامعي.. وطيلة الفترة اللاحقة لم أستطع الإفلات من سلاسل غادة، كما لم أستطع الهروب من عينيّ أحلام.

***

٦

قابلتُ شريف في الفندق ثانية، كان يجلس على أحد المقاعد، ويشعل سيجارة، دعاني للجلوس معه، ملأ كأساً من زجاجة النبيذ، شرب منه جرعة وقال: "هل تريد كأساً!".

- لا بأس، أعطني الزجاجة..

أبدى تعجباً وقال: "يا للغرابة، اعتقدتُ أنك أقلعت عن الشراب".

لم أجب، وأخذتُ أتجرع النبيذ من الزجاجة.. أضاف:

- المأساة تتكرر.. أشعر شعوراً غريباً وأنا أعترف لك اليوم يا رياض.. أنك تأمل أن تكون فارساً جديداً في حياتها وحياتي..

راودتني نفسي أن أقذف بالزجاجة في وجهه، لكني تراجعت وقلت: "ألم تنته من هذه الأسطوانة الفارغة!".

- دعني أريح ضميري وأقول كل ما في صدري.. لقد تعبتُ من الشكوك، وأرّقت حياتي الظنون.. اختلطت عليّ الأمور وتطايرت أحلامي حتى بات الوهم حقيقة..

ثرثر شريف وهذى طويلاً.. خلط الأمل بالضياع، والسلام بالحرب.. الأمن بالاغتيالات، العودة بالتشرد والمنفى، والحياة بالموت..

صمت لحظة.. أشعل سيجارتين معاً.. ناولني إحداها وقال:

- لا تنكر يا رياض.. لا يوجد شخص غريب بيننا..

استفزني بكلماته.. هممت بالانصراف.. أضاف:

- بإمكانك الرحيل إذا ثملت من الشراب، فلم يعد لديّ شيء أضيفه. ورفع يديه مستسلماً معلناً فراغ جعبته.

ألقيتُ بالزجاجة الفارغة على الأرض ووقفت.. تدحرجت الزجاجة حتى وصلت قدميه، واستقرت تحت مقعده تماماً.. قلت وأنا أنصرف: "أعتقد أني فهمتك هذه المرة أكثر من أي وقت مضى".

استوقفني بكلمات حادة كالسكين: "وغادة، هل فهمتها أيضاً!". لم أجب، وخرجتُ دون أن أنظر خلفي.

في الطريق إلى البيت راحت كلمات غادة تنخر رأسي.. صدى عميق وواسع.. "كل ما بإمكانك القيام به، أستطيع القيام به بشكل أفضل".

أمواج كأمواج البحر تلاطمت بعنف في رأسي.. همست في أعماقي "أنتِ حرة، إذا أعجبك ذلك الوغد".. شعرت أن هناك شخصاً آخر يتحدث غيري.. أحسستُ أن سلكاً رفيعاً يشد على عنقي ويخنقني.. أخذ العرق يتفصّد من وجهي.. جسدي كله بدأ يتعرّق، وسؤال خبيث بصراحته بدأ يلح ويضغط على حواسي "كيف تُفرّط بغادة بهذه السهولة، وأي مستوى وضيع انحدرْتَ إليه!".

تذكرتُ ما علّمني إياه والدي مذ كنت طفلاً "كما تعتدي على حقوق الآخرين يُعتدى عليك.. والبادئ أظلم".. غامت الدنيا في عينيّ.. أسرعتُ إلى البيت، فتحت الباب.. لم أرَ غادة.. صرخت بصوت مرتفع "غادة، غادة"، لم تجب.. فتحتُ باب غرفة النوم.. شاهدتها مستلقية على السرير وقد تدلت إحدى ساقيها إلى الأرض.. نائمة كانت.. استلقيت جانبها، وبقيت طيلة الليل أتنفس أوجاعها، وأستعيد ما قاله شريف وما تحدثت به أحلام.

***

٧

أيام قليلة مرت، رفرفت الأعلام على أسطح المنازل وعلى أعمدة الشوارع، وتزيّنت المدينة بأبهى الحلل بمناسبة العيد الوطني.. راح الناس يتحلّقون وينشدون الأهازيج الوطنية.. بينما راح بعضهم يتحلق حول أجهزة التلفاز التي كانت تبث الاحتفالات بثاً حياً ومباشراً.

في فندق الشاطئ احتفل الجميع أيضاً بهذه المناسبة.. فقد أقيم حفل جمع مجموعة من المسؤولين والمدعوين.. تحوّل قبل منتصف الليل إلى حفل راقص جمع كبار النخبة..

أحلام كانت المفاجأة الكبرى.. نجمة الحفل وضيفة الشرف الأولى بلا منازع.. حضرت مع زوجها شريف، وقد ارتدت ثوباً خاصاً لهذه المناسبة.. ثوباً أبيض اللون طويل تملؤه نجوم مرصعة، بدت تتلألأ تحت الأضواء وكأنها تعكس أشعة الشمس.. كما توشّحت بحزام يمثل ألوان العلم الوطني من كتفها الأيسر وحتى وسطها الأيمن، تدلّت منه أهداب سوداء، جعلها تبدو وكأنها في ربيع عمرها.. بينما ارتدى شريف زياً عسكرياً تزينه ثلاثة نجوم على كل كتف من كتفيه، ومجموعة من الأوسمة على صدره، ووقف يتوكأ على عصا في مقدمة المدعوين.

بعد منتصف الليل تفرّق المحتفلون، وجلس من تبقى منهم على المقاعد يتسامرون ويثملون..

أشار شريف لي بيده، كان متسمراً على مقعد جانبيّ.. تجاهلتْ أحلام وجودي ووقفت، خلعت الوشاح عن كتفها، وفسحت المجال لشعرها الأشقر لينساب على كتفيها.. ثم تمشت باتجاه حلبة الرقص.. اقتربتُ من شريف.. قال: "يا له من استعراض رائع"، وتناول كأساً من النادل وشربه جرعة واحدة.. وأضاف: "هل تريد كأساً؟".

- لا، أريد أن أبقى في صحو دائم هذه الليلة.
- أنظر يا رياض.. انظر إلى أحلام.. إنها تراقص أحد المدعوين.

عيناي كانتا تلاحقها.. طوّقها الراقص بذراعيه.. شدّها إلى صدره في حركة متناغمة مع صوت الموسيقى.. علامات الغضب بدأت تطفو على وجه شريف.. قال: "اذهب إليها، أرقص معها.. أنا لا أثق بغيرك".

تجاهلتُ تشجيعه وثقته المفاجئة.. أحسستُ أنه ينصب لي فخاً جديداً.. أضاف: "حاذر، سيخطفها منك، لا تعطه فرصة".. ثم نظر إلى ساعته وأضاف: "أين غادتك الساحرة!.. لقد فاتها كل المرح.. يجب أن تُسرع بالمجيء إلى الحفلة، مَن يضمن أنها ستتكرر!".

- إنها مريضة، نائمة تحت تأثير الحبوب المسكّنة. قلت.

قال بأسف: هذا مخيّب للآمال يا رياض.

أحلام كانت تتماوج كسنابل القمح في حقل شاسع..

- كنا نأمل أنا وغادة أن نشرب معكما الشاي في وقت لاحق، كنوع من الوداع. قلت.
- أتعني أنكما راحلان ؟.
- ظروف عملي تتطلب مني التنقل من مكان إلى آخر.
- ومذكراتي ماذا فعلت بها ؟
- لقد أصبحت رواية قابلة للنشر ولا ينقصها غير الخاتمة .

قطع حديثنا راعي الحفل قائلاً: "حان الوقت لنتوقف دقيقة احتفالاً بيوم عودتنا إلى الوطن.. فإذا أراد أحدكم أن يتمنى شيئاً للأمن والسلام فليُسرع.. بقي حوالي عشر ثواني على بدء الاحتفال".. وبدأ يعد.. عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة..

كنت أرقب المحتفلين وأجول بنظراتي لعلّي أرى أحلام، بينما كان شريف ينظر إلى راعي الحفل ويقول بصوت خافت: "عودتنا إلى الوطن!، أي أكذوبة هذه!، وأي وطن هذا الذي يتحدثون عنه والمستوطنات وجنود الاحتلال يملؤون أرضه وسماءه!"، فجأة وجدتُ أحلام تقف أمامي.. قالت: "أراك هنا!".. وبجرأة غير عادية تقدمت مني ومدت يدها لمصافحتي، وأضافت: "أيام سعيدة"..

حركتها المفاجئة أربكتني..

- وأنا يا عزيزتي. قال شريف مبتسماً.

تقدمت نحوه، رسمت ابتسامة على شفتيها، وقالت: "عام سعيد يا عزيزي شريف.. لولاك أنت وأمثالك لما وصلنا هذه المرحلة".. وطبعت على جبينه قبلة سريعة، ثم تناولت الكأس من يده، شربت منه جرعة وأعادته إليه ثانية.

- قولي أعوام سعيدة ومستقبل مشرق للأجيال القادمة. قال شريف.
- أعوام سعيدة.. قالت وعادت إلى حلبة الرقص.

تقدم النادل من شريف، همس بأذنه.. نظر الأخير إلى ساعته، ثم استأذن وانسحب إلى الداخل، فاسحاً المجال لاختبار مشاعري مع أحلام كما خمّنتُ تلك اللحظة.

توقفت أنغام الموسيقى فجأة، وأنطلق أحدهم بصوت جهوري يغني للوطن:

"إني اخترتك يا وطني.. يا وطني الرائع يا وطني"..

تحولت الأهزوجة إلى أغنية جماعية.. ردّد صداها كل المحتفلين في غناء موحد للوطن.. فجأة دوّت أصوات المفرقعات والألعاب النارية في سماء الفندق.. وجمهور الحفل يواصل الغناء:

"منتصب القامة أمشي.. مرفوع الهامة أمشي..
في كفي قصفة زيتون، وعلى كتفي نعشي..
وأنا أمشي، وأنا أمشي"..

اندفع البعض إلى وسط الحلبة.. ولا أدري كيف جذبتني أحلام وسط الدائرة، وإحداهن تردد بصوت مرتفع:

"قلبي قمرٌ أحمر.. قلبي بستان..
فيه فيه العوسج.. فيه الريحان"..

تعالت الهتافات وصفّق الجميع لها، وطلبوا منها إعادة الغناء، عبق عطر أحلام ملأ أنفاسي.. ضممتها إلى صدري.. قاومتني بلطف.. نظرتُ إلى عينيها وقلت: "لماذا!".

- اعتقدتُ .. قالت وصمتت فجأة.
- اعتقدتِ ماذا؟.

لم تجب.. أضفت: "أعرف كيف تنتهي قصتك"..

- لم تنته بعد..

همستُ قرب أذنها: "أنا سعيد بالتعرف عليك".

ابتسمت وقالت وكأنها في غيبوبة: "كلام فارغ، إنه مجرد حلم يحصل لرفيقين في سفر.. مجرد تسلية".

شعرتُ أني دخيل.. ازداد خفقان قلبي، قلت: "أتعني أن كل شيء في الحياة ملفّق"..

ابتسمت ثانية وقالت: "هل قلت شيئاً عن ذلك!".

- أليس من السخافة أن نفترق قبل أن أعرف نهاية القصة!.

أغمضت عينيها وقالت: "السلام والأمن، الهدوء والاستقرار، العودة والمنفى، الشهداء والنصر، الأجيال والحلم.. الثقة

بالآخرين، الثقة بمن تعتقد أنهم أهل للثقة.. كل ذلك سخافة وكلام فارغ.. العالم كله يعيش على زورق في بحر من السخافة كما يقول شريف".

أحسستُ أني أهوي في بئر عميق مظلم أمام تحوّلها المفاجئ كزاوية مقلوبة.. قلت: "لا أصدّق ما أسمع!".

تمايلت أحلام ثانية بين ذراعي وقالت: "أنت تأمل الحصول عليّ.. أليس كذلك!".

نظرتُ في عينيها.. كانتا بحراً أزرق وصورتي عالقة في وسطهما.. مئات الأسرار.. قلت: "أنتِ تؤلمينني فعلاً"..

- بنفس الطريقة التي تؤلم وتؤذي بها مشاعر زوجتك.. إنها تنظر إلينا مباشرة.

صفعتني أحلام بكلماتها صفعة قوية ومفاجئة.. ضربة غير متوقعة.. أضافت: "لا ترتجف هكذا، فليست هي الكابوس الذي ينال منك.. أنت أصبحتَ كابوسها"..

لم أستمع لبقية الكلمات.. تراخت يدي عن أحلام وجُلت بنظري بين المحتفلين.. شاهدتُ غادة تجلس قرب شريف ترقبني عن كثب، وهو يناولها كأساً من الشراب.. كانت تبدو كعروس ليلة زفافها، فستانها الأبيض كشف جزءاً كبيراً عن صدرها، بينما طوّقت عنقها بعقد أبيض بدا وكأنه موشى بحبات من اللؤلؤ.

خارت قواي فجأة، ووجدتُ نفسي أمام غادة مباشرة.. شعرتُ وكأني عارياً أمام نظراتها، ولم يعد لديّ ما أقوله أو أفعله أو يستر عورتي.. تحطّم كل شيء، وبدت ملامح الغضب واضحة على وجهها.. قلت: "يبدو أنك تعافيتِ، هل تشعرين بتحسن!".

نظرت في عينيّ وقالت: "كأني جديدة.. شكراً لأدويتك".

تدخّل شريف وحاول أن ينقذ الموقف.. قال:

- أنا اتصلت بغادتك الجميلة حتى لا يفوتها الاحتفال.. والآن ألا يمكنكما التغاضي عن الهفوات، والاحتفال معاً!.

تناولت غادة الكأس من يد شريف، وقالت وهي تنظر إليّ وتبتسم بمكر: "أراك تتمتع بوقتك!"..

تجاهلتُ ملاحظتها وقلت: "تعتقدين أنه يمكنك الشرب على معدة خاوية!".

ابتسمت ثانية ومدت الكأس بيدها نحوي وقالت:

- شكراً لهذه المجاملة.. في صحتك.. لقد تناولت وجبة خفيفة بصحبة السيد شريف. شربت جرعة وأضافت: "احترس، أشعر أني خطرة هذه الليلة".

ربت شريف على كتفها وقال:

- هذه هي المعنويات العالية يا عزيزتي غادة.. لا شك أن التوابل زادت من حماستك.

تحركتْ بانفعال.. سحب شريف يده عن كتفها.. وضعت الكأس على الطاولة، وقالت: "لم أشاهد زوجي أبداً يرقص مع امرأة غيري من قبل!".

غرقتُ في بحيرة ضحلة من الصمت.. شعرتُ أني أسقط في بركة من الرمال المتحركة.. تنمّرت قطتي دون سابق إنذار.. أضافت: "أو حتى يشرب من أجل امرأة غيري!".

قطع شريف استرسالها محاولاً أن يكبح جماح غضبها وقال:

- اعتبري هذا حادثاً عرضياً.. لا أعتقد أنه يتحداكِ..

طغى صوت الموسيقى على الكلمات.. لم يعد أحدنا يسمع الآخر.. اتجهت أبصارنا إلى حلبة الرقص.. أحلام كانت ساحرة الحفل ونالت إعجاب المحتفلين.. نجمة الحفل بلا منازع.. صفّق لها الجميع.. هزّت غادة رأسها، نظرت إلى وجهي وقالت: "يا للأسف!"، ووقفت بتحدٍّ واضح، ثم مشت تتبختر كالطاووس نحو المرقص.. اتسعت الحلبة.. وقفتْ جانب أحلام.. بدأت تُحرّك جسدها يمنة ويسرة.. تمايلت.. تحول الرقص إلى حركات فاجرة.. رقص الجميع وسط الحلبة ثم تراجعوا وأفسحوا المجال للغادتين.. تعاركت الصدور، التصقت، ابتعدت، تعالت الأصوات، تجاذبتا بعنف، تلامست صفحات الوجوه، اختلطت الأنفاس، امتزج أريج العطر، وتغازلت الحمامتان وسط تصفيق حار.

اندفعتُ نحو غادة لأوقف المهزلة.. جذبني شريف من بنطالي وقال: "لقد أخطأت بشأنك يا رياض.. فزوجتك تستطيع أن تقوم بعمل أفضل منك".

تناول علبة من جيبه، فتحها وتناول قرصاً وأضاف: "توقف عن الارتجاف يارجل.. اجعل من نفسك رجلاً عصرياً.. ستكون سعيداً لأنهما تتفقان بهذا الشكل الممتاز.. خذ هذا القرص، إنه يُشعرك بتحسن مع الشراب".

فجأة هز المكان انفجار قوي.. تلاه إطلاق نار كثيف وصرخات حادة، وانقطعت الأنوار.. تراكض الجميع، وتبودلت زخات من الرصاص.. وقع البعض على الأرض، وتطايرت أشلاء بعضهم الآخر..

اختفت أحلام كما ذابت غادة وسط الجموع الهاربة..

الجنود والرجال المسلحون غطوا المنطقة وانتشروا حول الفندق.. وشريف يتشبّث بساقي.. يبحث عن عكازته بين المقاعد المتناثرة، وقد سمعته يقول:

- كنت فاشلاً طوال حياتي، لكني أشعر اليوم بأن روحي رُدّت إليّ..

جذبتُ ساقي من يده بقوة.. قلت وثورة من الغضب تجتاح كياني: "لا تلمسني يا رجل".

كان مستسلماً لقدره وسط زخات الرصاص.. قال:

- أنا أستحق كراهيتك كما استحق كراهيتها.. أنا كائن لا يطاق.. لقد ظلمتُ أحلام كثيراً..

تركته يوبّخ نفسه واندفعت خارج الفندق الذي بدأت تشتعل فيه النيران..

كان الناس يندفعون، يتراكضون ويسقطون، يشيعون عن محاولة اغتيال فاشلة لأحد المسؤولين.. وكان الجنود يوقفون نزلاء الفندق ويدققون في بطاقاتهم الشخصية، وعند الباب الخارجي تتحلّق مجموعة من الصحفيين حول أحد المسؤولين، ويقصفونه بأسئلتهم الصحفية.. فقال باقتضاب: "الشرطة تبحث عن نشطاء من المعارضين لاتفاقية السلام، يتزعمهم رجل بساق خشبية يقال إنه خبير أسلحة ومتفجرات"..

رائحة الاتهام كانت تفوح واضحة نحو المعارضة، لتصفيتهم مع معارضي اتفاقية السلام.. أسرعتُ نحو الشاطئ في محاولة للابتعاد عن الناس.. كانت الأمواج الخفيفة تلاحق بعضها نحو رمال الشاطئ.. تبوّلت في مياه البحر.. جلستُ على صخرة قريبة ورحت أرقب انبلاج الفجر مع الأمواج من جديد.

انطلقت زوارق الصيد كفراشات صغيرة إلى عرض البحر.. تذكّرتُ غادة.. أسرعتُ إلى البيت، لم تكن في غرفتها.. بيت أحلام كان المحطة التالية في مؤخرة رأسي.. اجتاحتني عاصفة هوجاء ودفعتني إليه حاملاً معي كل أوجاعي وغضبي.

***

٨

الباب كان مفتوحاً على مصراعيه، وشريف يجلس قربه على مقعده المتحرك ببذته العسكرية.. سألته إذا كانت غادة في بيته!.. أشار إليّ بالدخول، وأغلق الباب خلفي.. تحرّك على كرسيه المتحرك وأشار لي أن أتبعه بهدوء إلى غرفة داخلية قائلاً:

- كنت بانتظارك.. تستحق أن ترى هكذا جمال، وتعيد زوجتك إلى حظيرتك.

فتح باباً وأضاء النور.. ظهرتا الغادتان نائمتين على سرير واحد تتوسدان بعضهما البعض.. أضاف:

- حوريتان نائمتان في فراش واحد.

اجتاحتني ثورة من الغضب.. اندفعتُ نحو غادة.. جذب معصمي وربت على يدي قائلاً:

- كن هادئاً وتصرفّ كرجل عاقل في بيتي.. لقد فاتك أن تعرف أنهما متفقتان..

كنت مرهقاً ولم أستطع تحمّل هذيانه أو تصرفاته الجنونية.. فجأة وجدتُ نفسي أنقض عليه وأقبض على عنقه في محاولة لخنقه.. بدت مقاومته ضعيفة وهو يتحسس شيئاً ما تحت مقعده.. فجأة التقط مسدساً وقال: "اهدأ يا رياض أو تموت، هذا المسدس حقيقي وليس لعبة أطفال".

تراخت يداي، وتراجعتُ أمام رجل مجنون لم يبق من حياته بقية.. وقفت قرب الجدار بناء على طلبه.. أضاف:

- أنا لا أستحق منك هذه المعاملة يا رياض.. أحلام هي التي أوصلتنا لهذه النتيجة..

أشعل سيجارة ونفث دخانها نحوي، ثم ناولني إياها وأشعل له سيجارة ثانية، وطلب مني أن أسمعه للمرة الأخيرة.. وبهدوء بدأ يتحدث:

"عندما شاهدتُ أحلام للمرة الأولى، أشعلتْ النار في خيالي، وأحببتُ هذه النار.. في المراحل الأولى من حياتي بدت نوراً في قلبي، وعشقتُ هذا النور.. بعد ذلك تحولت إلى لهب أحرقني وأحرق مشاعري، بدأت أفكاري تذوي وتذوب.. كانت طعنة قاتلة تلك التي أطلقتها أهدابها يوماً، فمزّقت قلبي على أعتاب شفتيها.. ذاكرتي بدأت تخونني وأنا أقطع معها المسافات وأجر أذيال الخيبة.. الذكريات تبدو مهترئة ومتعفنة، والصور تبدو غائمة بلا ملامح أو ألوان.. عيناها فقط واضحتا المعالم كانتا تقوداني إلى طريق مجهول.. جمالها سِحْرٌ شدّني إلى غابة بعيدة ليس فيها إنسان.. وحدها في الغابة الملعونة قصّت جدائلي وشعري وتركتني بلا قوة، تماماً كما فعلت دليلة بشمشون.. وكما فعلت اتفاقية السلام برجال المقاومة.. لم ترحمني، ولم تترك لرحمة الله مجالاً في حياتي".

كان يتحدث وكأنه يحفظ ما يقوله عن ظهر قلب.. شريف كان عالقاً تلك الليلة مع ماضيه البعيد.. كنت أنظر إليه وكأني أراه للمرة الأولى.. بدأ يتألم وعيناه تدمعان من شدة ما يعاني.. يحاول بشتى الطرق أن يخلص ذهنه من أية صورة تدفع أفكاره باتجاه الألم الذي يسحقه سحقاً.. يغوص في قيعان غريبة، ويشعر أنه على متن قارب تدفعه الرياح إلى أعماق المحيط الهادر.

قفزت دمعة من عينيه، تركها تنحدر على وجنتيه دون مقاومة أو إبداء رغبة بوقفها.. أحسستُ أنه يشعر باختناق وندم.. ألقى بسيجارته على الأرض وداسها بقدمه، ثم أشعل سيجارة جديدة، وعاد يتحدث بانفعال شديد من جديد.. كان يعاني، يتألم، وينضح من بئر أحزانه.. قال إنه تعفن في ظل السلام الموهوم، والوطن المستباح لجنود الاحتلال، وأضاف: "الناس جوعى، والمستوطنات تعلو فوق قبور الأجداد وجثث الشهداء.. من حجارة بيوت المواطنين التي نسفوها أقاموا مستعمراتهم فوق أرضنا العربية.. لم يتركوا لسفينتنا أملاً حتى تصل شاطئ الأمان، وإقامة دولة الحلم المستقلة.. اغتصبوا كل شيء، حتى أحلامنا اغتصبوها.. سدوا كل المنافذ ولم يتركوا لنا خياراً غير طريق المقاومة.. وكان لا بد أن نقاوم المستسلمين قبل قتال من فرضوا علينا الاستسلام".

قطع استرساله أصوات طلقات رصاص قريبة، وصوت يقول من خلال مكبر الصوت "البيت محاصر، ولا مجال أمامكم غير الاستسلام أو الموت، اخرجوا من البيت رافعين أيديكم إلى الأعلى".. صاح شريف: "انفذ بجلدك، إنهم يطاردون خلايا ورجال المقاومة منذ زمن بعيد، ويبدو أنهم عرفوا مكاني".

مُكبّر الصوت يعلو في الخارج ويكرر النداء.. تجاهل شريف سماعه.. تململت أحلام وانقلبت في السرير على وجهها.. نظر إليها نظرة خاطفة، أخفى وجهه بين راحتيه ومسح دمعة ثانية قفزت من عينيه فجأة، يبدو أنه تذكّر شيئاً، أو استعاد مشهداً من ماضيه.. شعرتُ أنه يتطهر من شيء ما.. أضاف: "أتعرف يا رياض.. أيها الفارس الجديد.. أحلام ليست سهلة المنال كما تظن.. إنها عنيدة.. جمالها كان نقمة ولعنة عليها في آن واحد.. حاولتْ أن تعيش حياتها وتكوّن أصدقاء بعد مقتل أخيها محمود.. لكن الجميع خذلوها، واعتقدوا أن جمالها شهوة.. وكنتُ أول من سقط في التجربة.. أنا الذي اكتشفتها، وأنا الذي أطلقت النار على أخيها ذات ليلة مظلمة قبل أن أعرفها، كنت في حراسة ليلية ولم أتبين وجهه.. كان من أعز أصدقائي وأصدقاء أخي الذي استشهد في جنوب لبنان قبل أن يرى أرض الوطن.. هي لا تعرف من أطلق النار على أخيها حتى اللحظة، وبدوري لم أعرف أن محمود الغزاوي كان شقيقها إلا أثناء اجتياح القوات الغازية للبنان.. يومها شعرتُ أني أجرمتُ بحقها، ولم استطع العودة إلى

البيت للنظر في عينيها.. ضميري بات لهباً يحرق أنفاسي، وعلى متن سفينة ضالة أقلعت من بيروت، كانت أحلام تلاحقني بضياعها ودموعها ووحدتها.. وحين التقيتها ثانية على أرض الوطن، شعرتُ أن الله ما أمدّ في عمري إلا ليعاقبني على ما فعلته بها، عندما فقدت ساقي وولديّ وزوجتي أثناء منفاي.. إنها قدري، ولن أسمح لنسمة هواء أن تمسها بسوء بعدي".

صمت لحظة، ثم نظر إليّ ملوّحاً بالمسدس الذي في يده وأضاف: "أتعرف قصة ذلك البطل الياباني الذي عشق حبيبته حتى الموت.. إنها أسطورة يابانية قديمة.. كان يغار على حبيبته من نسمة الهواء.. وفي لحظة صادقة مع نفسه، ألبسها أفضل الثياب، وغرز سيفه في أحشائها حتى يتوقف عن غيرته عليها.. وعلى الطريقة اليابانية نفسها غرز سيفه في قلبه وسقط فوقها".

نفد صبري من هذيانه.. قطعتُ استرساله ونعتّه بالجنون، قلت إن مكانه المصح العقلي، مستشفى المجانين.. لم يُعلّق، ارتجف وصوّب مسدسه نحو وجهي وقال:

"لا، لا.. فارس لم يكن يوماً ما في حياتي غير نقلة، استطعتُ أن أتخطاها وأبتعد.. تخلّصتُ منه بدم بارد.. أما أنت فقد دخلت حياتي من أوسع أبوابها.. لا أدري ما الذي يُميّز أحلام عن غادتك المخملية الجميلة!.. انظر إليهما وأرني ما الفرق بينهما.. أردتك أن تكون صديقاً وتكتب قصتي.. قصة الحب والحرب والشهداء

الذين ضاعوا وماتوا قبل أن يروا نور الحرية والعودة الحقيقية إلى الوطن وإقامة الدولة.. ذلك الحلم الذي أقنعنا أنفسنا بأنه حقيقة.. لكني وجدتك مثل أي عربي تبحث عن شيء آخر يخصك وحدك.. وجدت الخيانة تسري في عروقك، كما تسري في عروق الخونة الذين تاجروا باسم القضية وبدم الشهداء"..

فجأة تعرّق جبينه ووجهه وارتجف.. سحب أقسام المسدس وأضاف: "قلت لك سابقاً أن تهرب وتنجو بجلدك، لكن يبدو أن الخيانة تملؤك أنت الآخر.. اركع يا رياض.. اركع أمامي، أنت لا تستحق الشفقة".

شعرتُ أنه جاد في كلامه هذه المرة بعد أن أيقن أن الموت ينتظره.. قلت: "اهدأ وابعد هذا السلاح عن وجهي، ودعنا نتفاهم".

اجتاحته ثورة عارمة، أخذ يضرب رأسه بيده الأخرى، يرتجف ويقول: "لن أسمح لأحد أن يذلني بعد الآن، ولن أستسلم لهم".. فجأة تشنّج على مقعده المتحرك، وراح بكل قوته يطلق النار..

ارتعشت أحلام في سريرها وهمدت.. أطلق النار ثانية وثالثة.. اهتزت وهدأت حركتها.. صرخت غادة ووقفت مذعورة.. تكوّرت جانب السرير.. اتسعت حدقتا عينيها وهي تنظر إلى شريف بخوف ورعب قاتل.. اختلط الدم بشرشف السرير.. قفزتُ نحوه لأوقف حركته الجنونية.. صوّب فوّهة المسدس نحوي

وأمرني بالابتعاد عنه.. صرخ والدم يغلي في عروقه: "سأقتلك يا رياض إذا قمت بأي حركة".

أحسستُ أنني في حالة عجْز تامة، ولا أدري كيف أتصرف مع شخص يبحث عن الموت ويُفضّله على الحياة.. مثل هكذا إنسان، لا يمكن السيطرة عليه، كما لا يمكن معرفة ما يمكن أن يفعله في لحظة قادمة.. أدار وجهه نحو جثة أحلام.. نظر إليها ملياً وقال بصوت منخفض وكأنه يحدثها: "كنتِ صادقة وعطوفة وجميلة يا عزيزتي زيادة عن اللزوم.. وبدوري كنت عقبة ولعنة في طريق سعادتك.. هذا كل شيء.. أنا أحبك، ولن أتخلى عنك".

صرخ ثانية وأمرني بالتراجع إلى الخلف، انطلق صوت الرصاص من الخارج وحطم زجاج النوافذ.. أدخل شريف فوهة المسدس في فمه.. تعالت أصوات الطلقات في الخارج.. اقتربت أبواق سيارات الإسعاف.. الجماهير ملأت الشوارع.. عاشت الثورة.. ماتت الثورة.. تراكض الناس.. قتل أفراد المنظمات بعضهم البعض.. أضرب السجناء والأسرى عن الطعام.. أطفال الحجارة سدوا كل المنافذ والطرقات.. الأطفال يقاومون والسياسيون يحتفلون ويتآمرون.. الفقراء يموتون بحرية.. بكرامة.. وشريف يموت بإرادته هو الآخر.. شدّ الزناد بإصبعه وأطلق رصاصة الموت المجنونة.. تناثرت أجزاء جمجمته على الجدار الخلفي، وتوقفت حركته.

****

المؤلف في سطور:

اسم الشهرة : إبراهيم عوض الله الفقيه

- قاص وروائي وباحث
- مواليد صوبا / القدس / عام ١٩٤٦ م .
- حصل على ليسانس في الآداب (قسم اللغة العربية) .
- عمل مدرساً لمدة عشرة أعوام .
- يكتب القصة القصيرة والرواية.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- عضو اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا.
- عضو اتحاد كتاب أمريكا اللاتينية.
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية..
- لا يعنيه ملاحقة التيارات الرائجة بقدر ما يعنيه الوجود على الساحة الأدبية بأعمال قوية متميزة.
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئاً جديداً يريد أن يقوله.

مؤلفات إبراهيم الفقيه

- **الروايات:**

١. جذور في طريق التحرير- دار الزهراء، بيروت ١٩٧٤م.
٢. الهذيان – دار الزهراء، بيروت ١٩٧٥م .
٣. الصمت المعبر – دار عمار، عمان ١٩٩٢م.
٤. ما زال للصبار روح، دار النهضة، عمان ١٩٩٣م.
٥. الخريف واغتيال أحلام – دار النهضة، عمان ١٩٩٦م.
٦. الأرض الحافية- دار الينابيع، عمان ١٩٩٩م .
٧. نوافذ الغضب – دار الحرية، عمان ٢٠٠١م .
٨. ظمأ السنابل – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م .
٩. أحلام يوسف – دار فضاءات، عمان ٢٠١١م
١٠. قناديل الروح – دار فضاءات، عمان ٢٠١٣م
١١. ظلال العمر– الآن ناشرون وموزعون – عمان ٢٠١٨م

- **مجموعات قصصية :**

١. القربان – دار عمار، عمان ١٩٩٠م
٢. فرسان السراب – دار أمواج، عمان ٢٠١٠م

- **تاريخ :**

١. صوبا، إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية .

إبراهيم الفقيه

البريد الإلكتروني: faqeh46@hotmail.com

موقع صوبا: www.subaa.com